الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ (١٤٨)

شرح الكلمات:

الممترين –الامتراء: الجدال؛ الشك (المنجد).

التفسير: يقول الله تعالى إن هذا حقٌّ من عنده، ولا بد أن ينتشر في العالم يوما ما. إن الإنسان عندنا يتشكك في وقوع ما يقول فإنه يلجأ إلى أنواع الأعذار خوفا من ألا يتحقق قوله. ولكن ما يقوله رسولنا حق واقع لا محالة. ولماذا لا يتحقق ما دام هو من عند ربكم الذي خلقكم وطوركم درجة فدرجة، وعلا بكم إلى هذا المقام السامي؟ هل يمكن أن يتخلف كلام من يقوم بهذه الربوبية العظيمة؟ فما الفائدة من رفض كلامه؟ وسواء رفضتموه أم لا..فإن الأمر سوف ينتشر بلا شك؛ فرفضكم إياه لن يجديكم شيئا، وإنما أنفسكم تضرون.

كنت صغيرا عندما رأيت في المنام أن هناك مباراة في لعبة هندية شبيهة بالمصارعة تسمى (كبدي)، تجري في الطريق المؤدي إلى دار الضيافة بالقرب من المدرسة الأحمدية بـ"قاديان"، وأن هناك خطا يفصل بين الفريقين المتبارين، وجماعتنا في جانب، وغير الأحمديين في الجانب الآخر. وكل من يأتي إلى جانبنا يمسكه رجالنا ويجلسونه عندهم ...حتى أمسك فريقنا بكل رجالهم هكذا، وبقي المولوي محمد حسين البطالوي –أحد خصوم الجماعة الألداء –في الجانب الآخر. بعد ذلك رأيت أنه توجه إلى الجدار وبدأ يسير نحونا، ولما وصل إلى الخط الفاصل بين الفريقين قال: ما دام الجميع قد جاءوا إليكم فأنا أيضا آتي إليكم. ثم جاء إلى جانبنا.

هذا ما يقول الله: إن هذا الحق سوف يتغلب في الدنيا، وسوف تؤمنون في آخر الأمر، فلماذا لا تؤمنون اليوم؟ انظروا كيف أن المشركين يوم فتح مكة جاءوه ﷺ وتوسلوا إليه ليصفح عنهم فقال: اذهبوا، لا تثريب عليكم اليوم.

ولقد قال سيدنا المهدي والمسيح الموعود ما معناه: هذا قدر السماء، ولا بد أن يتم في كل حال..فلماذا ترفضونه وتفسدون عاقبتكم (مرآت كمالات الإسلام ص ٢).

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٩)

شرح الكلمات:

وِجهة- الوجه الجهة؛ المنهاج؛ المقصود.

فاستبقوا –استبق: أراد كل واحد أن يسبق الآخر.

التفسير: هناك مفعول به محذوف بعد (مولّيها) وتقدير الجملة: ولكل وجهة هو موليها وجهة..أي لكل شخص غاية معنية يركز عليها كل أفكاره، ويضعها نصب عينيه طيلة حياته، ويسعى بكل انهماك لتحقيقها. أحيانا يتخذ النجاح في التجارة هدفا له، وأحيانا الفلاح في الزراعة، وأحيانا الحصول على السلطة السياسية، وأحيانا الرقي في العلوم، وأحيانا خدمة الأرامل واليتامى والمساكين، وأحيانا نشر الدين. مهما كانت قدرات الإنسان عظيمة أو ضئيلة فإنه يعمل شيئا ما.. لأن الفراغ والبطالة ليسا في الحقيقة من الفطرة الإنسانية. وهكذا الحال بالنسبة للأقوام والأمم..كل أمة تجعل لها الغاية، وتبذل لأجلها كل تضحية. وما دام كل إنسان يفعل شيئا لا محالة، ويكون مشغولا بعمل شيء..فيجب أن يكون لكم أيها المسلمون أيضا غاية، ولكن يجب أن تكون غاية موحدة بدلا من أن تكون لهذا غاية ولذاك غاية بسبب الفرقة القومية. والناس يعيّنون مقاصدهم وأهدافهم بأنفسهم، ولكننا رحمة بالأمة المحمدية..نعين لهم بأنفسنا غاية سامية لتكون دائما نصب أعينهم، وهي: "استبقوا الخيرات".. يجب أن يحاول كل واحد منكم أن يسبق صاحبه وأخاه في فعل الخير.

وبقوله تعالى (فاستبقوا الخيرات) بين الله طريقا عجيبا لازدهار الأمم..لا يهتم به الناس هذه الأيام عموما للأسف. فقد لوحظ أنه عندما ينصح الإنسان صاحبه ويرغبه في الخيرات يقول: أنتم تضغطون على الفقراء فقط ولا تهتمون بالأثرياء ولا تسألونهم. لو كان أحد ثريا أو كبيرا من الناحية الدنيوية، ولا يستبق في الخيرات ولا يشارك فيها.. فلماذا تتخذه مثالا وقدوة لك؟ عليك أن تقتدي بالقدوة

الحسنة، وبدلا من أن تنظر إلى فقر أحد أو ثراء أحد.. تنظر من هو المتقي ومن هو البار. إن الفقير الصالح البار أحسن عند الله آلاف المرات من الثري الذي لا تقوى فيه. أما الصحابة فكان حالهم أن ذهب الفقراء مرة إلى النبي ﷺ يشتكون إليه: "قد ذهب أهل الدثور [أي الأموال]بالدرجات العلى والنعيم المقيم! فقال: وما ذلك؟ قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويعتقون [أي يحررون العبيد]ولا نعتق. فقال رسول الله: أفلا أعلمكم شيئا تدركون من سبقكم وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة.. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) (مسلم، المساجد). هكذا كان الصحابة متحلّين بروح التنافس والتسابق في الخيرات.

فبدلا من أن يعترض الإنسان ويقول لماذا لا تكلفون فلانا بهذه الخدمة..عليه أن يشارك بنفسه في العمل ويتسابق مع إخوانه في فعل الخير. كل واحد له غاية في الدنيا: فهذا يحب الأكل، وآخر يحب التمتع بالملذات، وثالث يغرم باللباس الأنيق، ورابع يريد المال، وخامس يحب الغيبة والنميمة، وسادس يحب الشجار؛ وسابع يحب التجارة..فكل امرئ له غاية يسعى للحصول عليها، ولو رأيتم أفقر الناس وأجهلهم لوجدتم أن له أيضا هدفا وغاية؛ فبعضهم يسعى ليكون من كبار القوم، ومنهم من يريد تعليما عاليا، وبعضهم يطمح أن ينال سلطة سياسية، وما دام لكل واحد هدف وغاية..فلماذا لا تفعلون فعلا يجمع الخيرات؟ لماذا لا تعقدون العزم على ألا تتخلفوا عن أحد في أي عمل حسن.

في عهد الرسول ﷺ تشاجر أبو بكر وعمر ذات مرة، وعندما انصرفا تأسف أبو بكر وفكر أنه لو بلغ الأمر الرسول لتضايق منه. فذهب إليه وقال: "إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليَّ ذلك، فأقلت إليك. فقال: يغفر الله لك أبا بكر ثلاثا. ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثمّ أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى النبي (ص) فجعل وجه النبي يتمعر

(أي يتغير) حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم ..."(البخاري، المناقب). هذه هي روح الخير والتسابق في الخيرات بين الصحابة. الخطأ من عمر ولكن أبا بكر يعتذر أمام الرسول ﷺ حتى يزيل سخطه عن عمر.

لا شك أن هناك العديد من المزايا التي تميز الإسلام وتفضله على الأديان الأخرى، ولكن من أعظمها أنه بينما تدعوا الأديان إلى عمل الخير فإن الإسلام يدعو للتسابق في الخير.

يقول الله تعالى أن كل أمة قد اختارت طريقا لنفسها، وأعرضوا عن طريق الخير، يقولون إنهم يدعون إلى الخير، ولكن الحقيقة غير ذلك..وبسبب انحرافهم نحو جوانب أخرى بقي جانب الخير خاليا لا يطرقه أحد، فعليكم أن تأخذوا هذا الجانب. عليكم أن تعملوا الخير، ثم تتسابقوا في فعل الخيرات، وتحاولوا أن تُبذُّوا الآخرين فيه.

لقد اختار الله كلمة (استبقوا) التي لا تدل في الظاهر على السرعة والعجلة، لأنه لو كان هناك من يسيران ببطء، وسبق أحدهما الآخر بعض الشيء لعدّ ذلك استباقا أيضا، وإن كان هذا السبق قليلا..ولكن لو تدبرنا في كلمة "استباق" لوجدنا أنها في الحقيقة تعني السرعة بأقصى درجة، لأن الله تعالى أمر هنا كل إنسان أن يستبق ولو أن أحدا سعى للاستباق وسبق قليلا.. فالأخر أيضا مأمور أن يسبقه، وهكذا كلاهما مأمور أن يستبق ويسبق..وسيحاول كل منهما أن يسبق بقدر قواه الإنسانية، ومن ثم سوف يكون الرقي والتنافس في فعل الخيرات متزايدا باستمرار ليصل إلى أعلى سرعة. كان من الممكن أن يستخدم هنا كلمات أخرى ترادف الاستباق في الخيرات، كأن يقال: فاسعوا في عمل الخيرات، ولكن الواقع أن مفهوم (استبقوا) لا يوجد في أي كلمة أخرى. فهذه الكلمة جامعة بحيث لا توجد كلمة أخرى تؤدي بنفس القوة معنى السعي إلى هدف والحصول عليه بأسرع ما يمكن. يمكن أن يجري الإنسان ولكن ليس بكل قوته، وقد يسرع ولكن ليس كما يجب، أما الاستباق فلا يتحقق معناه ما لم يبذل المستبقون كل قواهم..لأن كل فرد منهم

مأمور بالسبق، لذلك سوف يحاول كل فرد أن يسبق الآخرين..ولا يتحقق ذلك إلا إذا زاد كل واحد من سرعته وقوته إلى أقصى استطاعته ويستنزف كل طاقته وهمته في هذا الصدد.

الحق أن القرآن يقارن هنا بين الإسلام والأديان الأخرى، ويبين أن الأديان الأخرى غافلة عن فعل الخيرات وغير واقفة على حقيقتها. فالفرصة متاحة الآن للمسلمين كي يتقدموا إلى الأمام ويسعوا لأن يسبق كل واحد منهم الآخر. وهذه ليست بالعملية السهلة. إذا كان السباق مع اثنين أو ثلاثة فلا بأس، ولكن هذا سباق ملايين. السباق مع اثنين أو ثلاثة أيضا يتطلب أخذ العدة والتجهيز..فما بالك بسباق مع الملايين ؟ انظروا إلى سباق الخيل، كم يبذلون من جهود وسعي للاشتراك فيه.. فإذا كان السباق مع الملايين فيمكن أن تتخيلوا كم يتطلب ذلك من إعداد.

يقول الله هنا أن المؤمن يُعرف بمعيارٍ هو تسابق في الخيرات. والسعي للتسابق إلى الخيرات يرفع مستوى القوم باليقين إلى درجة تفوق التقدير.وكلما فُقد الخير في القوم أو تضاءلت روح التسابق لعمل الخيرات فإنهم يشرعون في الهلاك أو يمضون في الانهيار والسقوط، ولكن ما دامت هذه الروح قوية..فإنهم مهما كانوا قد بلغوا من الذلة والسقوط فإنهم لا يزالون يتألّقون، وتكون لديهم الفرصة لسبق الأمم مرة أخرى. إننا نجد بين أولياء الله من زمن قريب..عندما كان المسلمون في حالة من الانحطاط الشديد.. أمثلة للتسابق في فعل الخيرات تولد في قلب الإنسان حرارة. هناك مثلا حادث الشهيد سيد إسماعيل، الذي كان من القرن الثالث عشر الهجري، والذي كان مريدا لسيد أحمد البريلوي. ذهب سيد أحمد البر يلوي إلى بشارو للجهاد ضد السيخ، وكان سيد إسماعيل في مهمة بمدينة دلهي، وأثناء عودته من هناك وصل إلى مدينة كاملبور. فقيل له أن النهر الذي عندها لا يقدر أحد على عبوره سباحة إلا رجل من السيخ، وليس هناك من المسلمين من يهزمه في ذلك. قال إذا كان أحد السيخ يفعله فلماذا لا يفعله مسلم؟ قرر ألا يغادر المكان حتى يعبر هذا النهر. فتوقف هناك وتدرب على السباحة لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر حتى

مهر في السباحة وعبر النهر. وبذلك بين أنه إذا كان السيخ يعبرون النهر فبوسع المسلمين أن يعبروه مثلهم، بل ويمكن أيضا أن يسبقوهم متى أرادوا.

كلما نتذكر هذه الروح للتسابق نشعر في أنفسنا بنمو ونضج، وفي قلوبنا بحرارة وحماس، وفي أفئدتنا بعزيمة وهمة..ونقرر أننا لن نخضع لخصم أو معارض مهما حدث. إن الإسلام لا يسمح أبدا أن نكون كسالى في مجال الخير، بل علينا أن نستبق فنسبق حتى آباءنا وأجدادنا في الخيرات. ولكي تكون أمتنا أقوى وأعز الأمم..علينا السعي كي نسبقها في المجال العلمي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي. إن القرآن المجيد بقوله تعالى (فاستبقوا الخيرات) وبقوله في موضع آخر (فالسابقات سبقا) (النازعات: ٥)..قد أشار إلى أن الدنيا في سباق، فمن واجبكم أن تسبقوا الجميع.

إنه من واجب جماعتنا أيضا أن يفحص كل فرد منا نفسه ويحاسبها. وأن يولد في قلبه حبا عميقا وَوَلَهًا عظيما تجاه الدين. ويجب أن يكون أمامه في نومه ويقظته وفي قيامه وقعوده غاية واحدة، ألا وهي أننا سوف نجعل الإسلام غالبا على الأديان كلها، وما لم تتولد فينا هذه الروح لن ننجح في أهدافنا.

وعلاقة هذه الآية بالتي قبلها أن الله بين من قبل أن اليهود قد جعلوا معارضة النبي في كل حال هدفا لهم، فقال (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) وكأنهم –وإن فقدوا الله ورسوله–لن يرتدعوا عن معارضة النبي. هذا لأنهم لم يعينوا لهم غاية وهدفا ساميا. لذلك يجب عليكم أيها المسلمون، أن تحددوا لكم غاية سامية، ولكن تذكروا أن لا تكتفوا بخير واحد ليكون هدفا لكم..بل يجب أن تجعلوا الخيرات كلها هدفا لكم. وكلَّما علمتم عن عمل خير فأسرعوا دون تردد أو تفكير لكسبه، واعتبروا الابتعاد عنه بمثابة الموت لكم. وتذكروا ثانيا أن يكون التسابق في الخيرات دائما غاية لكم. وثالثا إذا سبقتم غيركم بسبب كسله أو بسبب سرعتكم..فلا تكتفوا بسبقكم إياه في خير واحد..بل اسعوا لتكونوا سباقين في كل خير، وبأسرع ما يمكنكم.

وإلى ذلك ينبه الحديث الشريف: (الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها) (ابن ماجة، الزهد).يبين هذا الحديث أولا: أن المؤمن لا يقوم بأي عمل بدون حكمة، فهو جامع لكل المحاسن، وشامل لكل الخيرات. وثانيا: نصحنا فيه الرسول ﷺ أن المؤمن إذا رأى أي شيء من الحكمة حاول الحصول عليه وكأنه فقده وقد عاد إليه، وبغض النظر عن مصدره..أَخَرَجَ من فم منافق أو كافر..فإنه يسرع في الحصول عليه. فكما يجد الوالد ابنه المفقود فيسارع إلى احتضانه؛ كذلك المؤمن يجب أن يسرع إلى كل حسنة ويقول: هذه كانت ملكا لي، وللأسف حازها الكافر أو المنافق، وها قد عادت إليّ فلأستردها وأتحلى بها مرة أخرى.

إن كثيرا من المساوئ تقع في العالم فقط لأن الناس يكتفون بما عندهم من محاسن ويفتخرون بها، ولا يسعون لتحصيل المحاسن الأخرى في أنفسهم. ولو رأى المرء في عدوه حسنة اعتبرها سيئة بغضا وحسدا، ولا يفكر أن عمله هذا لا يضر عدوه شيئا، لأنه فعلا يتحلى بهذه الحسنة، ولكنه يضر نفسه لأنه حرم نفسه من التحلي بتلك الحسنة بغضا وحسدا. فمن واجب المؤمن أن يتحلّى بكل حسنة، وأن يسبق الآخرين في التحلي بكل خير.

ويجب ألا يُفْهَمَ من ذلك أن الإسلام بتعليمه هذا يدعو إلى الحسد. ذلك لأن التباري ضروري في الأمور الدينية والدنيوية أيضا، وبدون التباري لا يمكن أن يتم الرقي الكامل، بل إن التسابق بين الأمم والأفراد هو الأساس لكل رقي في العالم. أما الطمع والجشع فقد استأصله الإسلام برمته في قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (آل عمران: ١١١)..أي واجب المؤمن أن يأخذ الآخرين إلى حيث وصل، لأن غايته هو نفع الآخرين. كذلك قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون) (آل عمران: ١٠٥). فالمؤمن إذا نال خيرا فإنه على الفور يدعو الآخرين ليسرعوا ويأخذوه. كأن على المؤمنين أنهم إذا استبقوا أخذوا معهم المتخلفين، وإذا استبقوا مرة أخرى سحبوا وراءهم المتأخرين عنهم..وهلم جرا؛ كلما سبقوا ساعدوا غيرهم على اللحاق بهم وتنافسوا من جديد في الخيرات. وهذه هي حالة العشق.

فالله تعالى يريد من المؤمنين أن لا يصلوا وحدهم إليه سبحانه وتعالى، بل يجب أن يصحبوا معهم الآخرين. ومثال ذلك ما قاله سيدنا يعقوب لأبنائه وهو يودعهم في رحلتهم إلى مصر: لا ترجعوا وحدكم، بل عليكم أن تحضروا أخاكم بنيامين معكم (يوسف: ٦٧).كذلك يقول الله : تعالوا إليَّ مسرعين، وأتْوا بأبنائي الروحانيين الآخرين أيضا. فالمؤمن يجري ويسعى إلى الله ويقول: إني ذاهب إلى ربي، ولكني إذا وصلت إليه فبِمَ أرد عليه..لذلك لا بد أن آخذ معي الآخرين.

فقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجي للناس)وقوله(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)قد استأصلا الحسد والطمع، لأن المؤمن عندما ينال خيرا فإنه يدعو الآخرين فورا ليشتركوا معه، وبهذا يتم السباق اللطيف الطيب بينهم في الخيرات، وكذلك لا تكون هناك أية شائبة من الحسد والطمع. فما ألطف هذه المباراة، وما أعجب هذا التسابق ؟

قوله تعالى (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا)..أينما كنتم سوف يجمعكم الله آخر الأمر. وسوف يسألكم عن تكاسلكم وغفلتكم وتقصيركم في اصطحاب الآخرين في سباق الخيرات. فيجب أن تفكروا في ذلك اليوم دائما، ولا تقصروا في أداء واجبكم، فالله محاسبكم لا محالة قائلا: قد أنعمت عليكم بنعمة الإسلام، فلماذا لم تبلغوها الآخرين، ولما لم تحاولوا سبق غيركم في مجال الخيرات. فيجب أن تستعدوا لذلك اليوم قبل حلوله، وتدرسوا أعمالكم، وتحاسبوا أنفسكم حتى لا تندموا يومئذ، ولا تُعَدّوا عند الله من المجرمين.

قوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير)..فلا تظنوا أن هذا الهدف ليس في متناول يدكم، كما يدّعي البعض ويقولون: ليس من حظنا أن ننال هذا المقام العظيم، فلا يعملون بهمة ونشاط، وإنما يقعدون عاطلين عن العمل منهارين، ويقولون لن نحصل إلا على ما قدره الله لنا. مع أن الله تعالى وهب للإنسان قوى عظيمة يستطيع بها أن يتسابق في الخيرات، ويأخذ الآخرين ويضمهم معه. هذا ليس متعذرا عليه أبدا.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٥٠) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥١).

شرح الكلمات:

خرجت –إلى جانب المعنى المعروف للخروج هناك معان أخرى له منها:

أوّلا–خرج عليه: برز لقتاله (الأقرب)، ومعنى القتال والحرب مذكور في آية أخرى حيث قال الله تعالى (فإن رَجعَك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا.. إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) (التوبة: ٨٣). فالخروج هنا بمعنى البروز للقتال.

وثانيا –خرج عليه: خلع طاعته، يقال: خرجت الرعية على الوالي: خلعت الطاعة.

وثالثا–خرج الوالي على السلطان: تمرّد (الأقرب).

حجة –الحجة: دليل يجعل المرء غالبا على خصمه. قال الأزهري: الوجه الذي يكون به الظفر يسمى حجة (لسان العرب). ومن حيث الغلبة على الخصم يسمى حجة (كليات أبي البقاء). وقد وردت الحجة بمعنى الدليل الغالب في الحديث النبوي الشريف عن الدجال، قال ﷺ (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم) (ابن ماجة –أبواب الفتن)..أي إذا خرج الدجال وأنا بينكم فسوف أقدم الأدلة التي ينهزم أمامها. هذا الحديث يؤكد من ناحية أن الحجة هي الدليل الذي يهزم الخصم، ويبين أيضا أن القتال ضد الدجال لن يكون بالسيف بل بالحجة والبرهان، لأن الرسول قال (فأنا حجيجه)أي غالبه بالحجة.. أي بالدليل والبرهان وليس بحد الحسام. إن العلماء المعارضين يعترضون على سيدنا المهدي والمسيح الموعود أنه لم يُهلك الدجال قتالا بالسيف، بل نسخ الجهاد بالسيف كلية؛ مع أن هؤلاء لو

تدبروا في كلمات هذا الحديث أدنى تدبر لاتضح لهم أنه من الضروري التغلب على الدجال بالأدلة والبراهين، وإلا كان لا بد أن يذكر حديثا من الأحاديث أن الدجال سوف يهلك بالسيف.

والحجة أحيانا تأتي بمعنى الدليل الضعيف مع وجود قرينة معه..كما جاء في القرآن الكريم (حجتهم داحضة عند ربهم) (الشورى: ١٧).

والحجة الدليل المحض كما ورد في القرآن الكريم (ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه)(البقرة: ٢٥٩) فالحجة هنا بمعنى الدليل فقط، والقرينة أنه لا يمكن للفريقين التغلب على الآخر في وقت واحد.

إلا الذين ظلموا-تأتي "إلا" بمعنى "لكن" فيقولون: ما لك عليّ حجة إلا أن تظلمني..أي ولكنك تظلمني (البحر المحيط، وتفسير فتح البيان، تحت الآية نفسها). وتأتي "إلا" بمعنى العطف مثل(لا يخاف لديّ المرسلون إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء)..حيث تعني "ولا من ظلم.."(مغنى اللبيب ج١ حرف الهمزة).

فمعنى قوله تعالى (لئلا يكون على الناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم)..أي أن الناس..العاقل منهم والظالم..كلهم لا يستطيعون أن يقدموا دليلا يشكك في صدق المسلمين.

التفسير: قال المفسرون في قوله تعالى (ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) أن معناه: يجب عليكم حيثما كنتم أن تجعلوا المسجد الحرام قبلتكم على أي حال. وسبب ذلك عندهم أن الله عندما أمر بالتوجه إلى القبلة..فربما يظن أحد أن هذا الأمر خاص بأهل المدينة لا للجميع، لذلك قال الله تعالى: من حيث خرجتم فاتجهوا نحو المسجد الحرام.

ولكن الحقيقة أنه..سواء كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ أم إلى المسلمين جميعا..فلا تعني الآية أن يتجهوا إلى القبلة..وذلك لعدة أسباب.

أولا–لأن الصلوات التي يؤديها الإنسان وقت إقامته في بلده أو قريته أكثر من تلك التي تحين وقت خروجه من البلد عموما..لذلك كان من الواجب أن يصدر أمر يُغطي أكثر ما يمكن من الصلوات بدلا أن يصدر أمر تقل الفرصة للعمل به في حالة السفر. فمثلا يمكن أن يخرج المرء من البلد في العاشرة صباحا أو بين العصر والمغرب أو في منتصف الليل..وكل هذه أوقات لا مجال للصلاة فيها عادة. إذن والحال هذه، فإن قول الله تعالى (من حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) يصبح بلا فائدة أو معنى، لأنه قلما يخرج الإنسان من البلد وقت الصلاة..فإما أن يكون قد أدى صلاته قبل الخروج، أو يمكن أن يؤديها بعد خروجه. فلا علاقة للصلاة بوقت الخروج. كان من الممكن التسليم بهذا المعنى لو كان هناك صلاة لها علاقة خاصة بخروج الإنسان من بيته وبلده، ولكن الجميع يعرفون أنه ليس هناك صلاة خاصة بوقت الخروج. فإذن لا يصح تطبيق معنى هذه الآية أبدا على خروج الإنسان من بيته وبلده بإرادة السفر.

ومما يؤكد قولنا أن هذه الآية لا تتعلق بالتوجه إلى القبلة وقت الصلاة هو أنه في حالة السفر أحيانا لا يمكن الاتجاه إلى القبلة، وتجوز الصلاة عندئذ في أي جهة يكون عليها الإنسان. مثلا إذا كان على مطيته ولا يستطيع النزول عنها، فبحسب القرآن والسنة النبوية تجوز صلاته سواء كان وجهه إلى القبلة أم لا. ولا تبقى الجهة ذات معنى عندئذ، وإنما يستوي الشرق والغرب والجنوب والشمال، ويكفي التوجه القلبي إلى الكعبة المشرفة (البقرة: ١١٦ومسلم، صلاة المسافرين). في هذه الأيام، عندما يركب الإنسان في القطار، فلا يمكن أن يتقيد بجهة، لأن القطار يتجه مرة إلى الشمال ومرة إلى الجنوب أو إلى أي جهة أخرى، ولكن هذا لا يخل بصلاة الراكب فيه. فلو صح المعنى الذي يقول به المفسرون ما أمكن أن يعمل به المسافر على مطية أو قطار أو طائرة. وما دام الإنسان لا يستطيع وقت الخروج أن يتجه إلى جهة معينة فكيف يمكن أن يكون معنى هذه الآية أن يلتزم الإنسان بالتوجه نحو الكعبة المشرفة من حيث خرج مسافرا؟

ثم إنه لا يصح هذا المعنى أيضا لأن المعنى الحرفي للآية أنك من حيث خرجت يجب أن تتجه إلى البيت الحرام. والواضح أن الإنسان لا يؤدي صلاته وهو يخرج وإنما يؤديها عند توقفه في مكان ما. لو كانت كلمات الآية "فحيث ما كنت فول وجهك شطر المسجد الحرام "لصح المعنى الذي يذهب إليه المفسرون، ولكن الله تعالى يقول هنا (من حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام). فتبين من كل ذلك أن هذه الآية لا تعني التوجه إلى المسجد الحرام وقت الصلاة.

يقول المفسرون إننا لو لم نربط هذا الخروج بالصلاة للزم التكرار في القرآن. ولكن قولهم هذا أيضًا خطأ. إنهم يجدون في القرآن تكرارا لأنهم لا يستطيعون الربط الصحيح بين مواضيع القرآن ومطالبه الصحيحة. فحيثما يجدون إشكالا يدخلون في متاهة الناسخ والمنسوخ، فيأخذون بآية ويعتبرون الأخرى منسوخة، ويتخلصون من الإشكال. مع أننا لو نظرنا إلى حقائق القرآن الكريم التي بينها سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) لم نجد في القرآن أي تكرار، ولم نضطر إلى القول بنسخ آية منه.

الواقع أن الرسول ﷺ عندما أُخرج من مكة وجد أعداء الإسلام فرصة للاعتراض قائلين: إذا كان هو الموعود حقا ومصداقا للدعاء الإبراهيمي، وإذا كان له علاقة خاصة بالكعبة المشرفة..فلماذا طرد من مكة؟ إذن فليس هو مصداقا للدعاء الإبراهيمي. فيرد الله على هذا الاعتراض قائلا (من حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام)..يا محمد..إن خروجك من مكة مؤقت. ونعدك أننا سوف نمكنك من الرجوع إليها مرة أخرى والاستيلاء عليها. وعندما يقطع الله مع عباده المؤمنين وعودا فإنه يتوقع منهم أيضا أن يبذلوا من جانبهم جهودا لتحقيقها، ولا يصح أن يعدهم الله فيجلسوا عاطلين، ويظنوا أنه ما دام الله تعالى قد وعد فلا بد أن يحققها بنفسه، ولا حاجة لنا لبذل الجهود سعيا لتحقيقها.

لقد وعد الله قوم موسى أنه سيعطيهم"أرض كنعان". فخرج موسى مع قومه..وعندما وصل إزاء هذا البلد قال لقومه: ادخلوها واستولوا عليها بالقتال.

ولكن قومه أخطئوا وظنوا أن الله سوف يحقق لهم الوعد لا محالة ويعطيهم البلد بنفسه، إذ لا معنى للوعد في نظرهم إذا هم بذلوا الجهد وفتحوا البلد بمشقة القتال. فقالوا لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) (المائدة: ٢٣-٢٥وخروج ٣:٨-١٧)..لقد أخْبَرْتنا يا موسى، أن الله وعدك سيعطينا هذا البلد، فمن واجبك أنت وربك أن تفتحا لنا البلد، ولو فتحناه بأنفسنا فما معنى وعودك لنا؟ فاذهب أنت وربك وقاتلا..أما نحن فسننتظر هنا، فإذا فتحتم لنا البلد فسوف ندخله.

وقولهم هذا يبدو معقولا في الظاهر، لأن الإنسان إذا وعد أحدا بمنحة شيئا، وجاء الموعود يسأل تحقيق الوعد، فقال له: اذهب واشترِه من السوق..لذم الناس هذا الإنسان وقالوا: إذا كان على الموعود أن يشتريه من السوق فلماذا الوعد بإعطائه؟ لكن قول أصحاب موسى –رغم معقوليته شكلا –إلا أنه في الحقيقة غاية الحمق فيما يتعلق بالجماعات الإلهية. فالله تعالى لم يمدح بني إسرائيل على ذلك، و لم يقل: لا حاجة بكم للقتال وسنعطيكم هذا البلد، بل قال لهم: إنكم تطاولتم علينا، ولذلك سوف نحرمكم هذا البلد، فاذهبوا تائهين في البراري ضائعين في الفيافي لأربعين سنة، ولن ترثوا هذه الأرض بل سيرثها أجيالكم بعدكم (المائدة ٢٧،وسفر العدد ١٤:٣٣).

فالقول الذي يبدو من حيث المعايير الإنسانية صحيحا معقولا، يعتبر غاية الحمق بالنسبة للجماعات الإلهية، ويجلب على الإنسان عذاب الله. ذلك أن الإنسان عندما يعِد، وهو لا يملك التصرف في التغيرات السماوية والأرضية..فإنه يعد فقط بشيء يكون تحت تصرفه. ولكن وعد الله تعالى يعني أنكم لا تستطيعون الحصول على هذا الشيء بجهودكم الشخصية.. فهذا مستحيل لكم.. ولكنكم سوف تنالونه بمعونتنا ونصرتنا. هذه الأمة التي عاشت لمئات السنين تحت نير العبودية عند فرعون، واشتغلت بالأعمال الشاقة المهينة من صنع اللبن وقطع الأخشاب..أنّى لها أن تستولي على بلد عظيم يحكمه قوم عاد؟ لم يكن ذلك الاستيلاء سهلا عليهم.

يقول الله تعالى: إن استيلاءكم على هذا البلد مستحيل في الظاهر، ولكننا نعدكم بإعطائكم إياه، وسوف تستولون عليه بمعونتنا ونصرتنا. ووعد الله لعباده لا يعني أن الله تعالى يحقق وعده بنفسه ولا حاجة للعبد في بذل الجهود.. ولكنه يعني أنكم إذا بذلتم الجهود وأخذتم بالأسباب فسوف نعينكم وننصركم فتفلحون. فكأن وعود الله تعالى من نوع، ووعود العباد من نوع آخر، فوعود الله للعباد دور فيها..هو أن يأخذوا بالأسباب لتحقيقها، وإذا لم يتدخل العباد ويبذلوا الجهود لتحقيقها استوجبوا العقاب. ولكن وعود العباد تختلف عن الوعود الإلهية، لأن العبد لا يستطيع أن يعد غيره ويقول (سوف أغير لك قدر الله)..لأن هذا ليس من خياره، ولو وعد بذلك لقال له الناس: من أنت حتى تدّعي ذلك؟ ولكن الله تعالى هو القادر على أن يقول: لو فعلتم ذلك فسوف أنصركم وأغير لكم قدري؛ لأن القدر بيده، ويمكن أن يغيره متى يشاء.

فعندما وعد الله رسوله بفتح مكة قال للمسلمين: لا تكونوا مثل قوم موسى فتظنوا أنه ما دام الله تعالى قد وعدكم بالفتح فسوف يفتحها لكم بنفسه.. ولا حاجة لكم بالأخذ بالأسباب؛ بل عليكم أيضا أن تبذلوا جهودكم لتحقيقه. إن وعد الله يعني أنكم ضعفاء. إذا لو لم تكونوا ضعفاء ما تركتم مكة. فهجرتكم منها يعني أنكم ضعفاء، وأن عدوكم قوي، ولكن الله تعالى سوف يقويكم وسوف يمكنكم بفضله ونصرته من انتزاع مكة من أيديهم.

إذن فمعنى قوله تعالى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) أنكم من حيث خرجتم يجب أن يكون فتح مكة أول غاية وهدف لكم.

ثم من معاني الخروج البروز للقتال؛ فتعني الآية أنكم كلما خرجتم للقتال وحاربتم في أي مكان واتجهتم إلى أي اتجاه فيجب أن يكون خروجكم هذا تمهيدا لفتح مكة. فمثلا لو خرجتم للقاء عدو في الجنوب ثم أدركتم أن هناك أعوانا له في الغرب قد يهاجمونكم من الخلف فتصديتم لهم..فذلك يعني أن حربكم في الغرب هي تمهيد لحرب العدو الذي في الجنوب. وكذلك لو كان للعدو أنصار في الشمال

أو في أي مكان، فمحاربتكم إياهم هو حرب للعدو الجنوبي..لأن هدفكم الحقيقي هو الهجوم على العدو في الجنوب. إلى هذا المبدأ يشير الله هنا ويقول: أيا كان البلد الذي تخرجون لمحاربة أهله فيجب أن تكون وجهتكم مكة، لأن الله تعالى يريد أن تفتحوها وتستولوا عليها.

وعندما نلقي نظرة على غزوات النبي ﷺ نجد هذا العامل بارزا جدا، فكان فتح مكة هو الهدف الأسمى لقتاله وحروبه. لقد هب لقتاله عدد من الأمم، وأثاروه فعلا واشتبكوا معه، فإذا رأى في حرب أنها تُفوت عليه هدفه هذا ولا تحققه، أو أحس بأن القتال مع عدو سوف يؤخر فتح مكة.. فكان يغض النظر عنه رغم استفزاز العدو له. ولكن إذا أثاره قوم وكانت هزيمتهم خطوة لفتح مكة قاتلهم النبي. كل الغزوات الإسلامية كانت تنطوي على هذه الحكمة.. وعلى وجه الخصوص الغزوات التي تمت قبل فتح مكة.. فقد كان هدفها الوحيد التمهيد لفتح مكة.

فهذه الآية لا علاقة لها بأداء الصلاة والتوجه إلى الكعبة، وإنما معناها أنكم من حيث خرجتم متجهين إلى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب..فيجب أن تكون وجهتكم هي مكة ...ويكون فكركم وخيالكم وعقلكم دائما متجها إلى فتح مكة والاستيلاء عليها، وبالتالي توطيد الإسلام في الجزيرة العربية.

ومن معاني "الوجوه" التوجهات والاهتمامات (المفردات). فالمقصود إذن أن يكون لكم اهتمام وهدف واحد، وهو فتح مكة، ولتكون لكم الكعبة المشرفة، لأنه ما لم تقع مكة في قبضة المسلمين لا يمكن أن يدخل سائر العرب في الإسلام.

هذه هي الخطة والغاية التي عينت للمسلمين..ولا شك أنها كانت خطة خارج نطاق مقدرة المسلمين. نعم، لم تكن في الجزيرة العربية حكومة منظمة، ولكنها لم تكن أيضا تحت حكم طائفي. كان ملوك عديدون على صلة بهم ، ويتعاهدون معهم. وصحيح أنه لم تكن لمكة حكومة منظمة حق التنظيم ولكنها على كل حال كانت عاصمة حكومة يبلغ سكانها ما يقرب من مليون ونصف المليون. كانت

القبائل حولها تنظر إلى أهلها، وكانوا يطيعون حكامها في قراراتهم وأوامرهم. ثم إن مكة كانت بلدا كبيرا بمقياس ذلك الزمن يقطن بها خمسة عشر ألفا من السكان، ولم يكن أهلها فقط، بل كل سكان الجزيرة العربية كانوا محاربين مطبوعين على القتال ماهرين في فنونه. ولم يكن محاربتهم أمرا سهلا بالنسبة للمسلمين. عندما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ لم يكن عدد المقاتلين في المسلمين يزيد على أربع أو خمس مئات، أو ألفا على أكثر تقدير. وكان عدد المسلمين رجالا ونساء. وكبارا وصغارا عشرة أو اثني عشر ألفا. أما عتادهم الحربي فلا يستحق الذكر. وعندئذ حين لم يكن أي تناسب بين المسلمين والكفار في العدد والعدة، ولم يكن لقوتهم الحربية أي وزن..قال الله للكفار متحديا: إن هؤلاء المسلمين الذين تروهم قلة ضعيفة بلا حيلة..سوف يفتحون بلدكم في يوم من الأيام، ويستولون على عاصمتكم، وينالون السلطة فيها حتى يقومون منها بنشر تعاليم الإسلام وأحكامه، ويمحون الكفر والشرك من أرض الجزيرة العربية.

هذا التحدي بالنظر إلى حال المسلمين كان ضربا من الخبل. ثم أنه لم يكن موجها لأهل الجزيرة العربية وحدها، بل كان له أثر واسع، فلم يكن يضمن نبأ عن فتح مكة، ولا نبأ بالتغلب على الجزيرة العربية فحسب، وإنما كان أيضا تحديا قويا لليهودية والمسيحية والمجوسية.. بأن الإسلام سوف يظهر على كل هذه الأديان ويسود في العالم كله.

كانت هذه الدعوة دعوة جنونية بحسب الظروف يومئذ، ولذلك كان الكفار يسمون الرسول ﷺ مجنونا، وأصحابه مجانين. كانوا لا يرون في هذه الدنيا المادية أية أسباب مادية لتحقق هذه الدعوة. والحقيقة أن الأعمال غير العادية لا تُنجز ما لم يكن في الإنسان أحيانا ما يسميه الأطباء (هَوَس) وما لم ينس الأمور الأخرى كلها، وما لم يتولد في نفسه قلق واضطراب كل حين، وما لم يوجد فيه نوع من الجنون. وإلى هذا الأمر ينبه القرآن الكريم هنا ويقول: عليكم أن تنسوا كل الأهداف الأخرى، وتضعوا في حسبانكم أن فتح مكة للإسلام أول واجب عليكم،

واعلموا أنه ما لم يتم الاستيلاء على هذا المركز وهذا الحصن لن يتم لكم فتح سائر العرب ثم الدنيا من بعدها.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا قال الله تعالى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام).. ولماذا لم يقل: ومن حيث هاجمتم فاجعلوا المسجد الحرام غايتكم؟ والجواب: أن الإنسان وقت خروجه يقرر هدف هجومه، وليس بعد القتال يحدد هدفه. ولما كان الله يريد توجيه أنظار المسلمين إلى هدف فتح مكة قال: من حيث خرجتم..انظروا ماذا يكون أثر هذا الخروج على فتح مكة. إذا لم يكن مساعدا على إنجاز فتح مكة فدعوه.

ولكن هذا لا يعني أن الإسلام يعلم أتباعه بهذا الأمر الحروب العدوانية..لأن التاريخ يؤكد ويثبت أن الحروب مع الكفار قد بدأت قبل نزول هذه الآيات.

وجدير بالملاحظة أن الله خاطب هنا رسوله فقط حيث قال (ومن حيث خرجت)..ذلك لأنه لم يكن هناك بعد النبي ﷺ حاجة إلى فتح مكة. لقد قدر سبحانه وتعالى ألا يقع هجوم بعد ذلك على مكة..بل ستبقى في قبضة المسلمين كلية. وكأن في هذا النبأ أنه لن يتم فتح مادي لمكة مرة أخرى..لأن الله تعالى قد خلق جماعة فعالة لتوطيد عظمة مكة، وسوف تبقى في قبضة المسلمين إلى الأبد.

قوله تعالى (وإنه للحق من ربك).. نزلت هذه الآيات بعد الهجرة بستة عشر شهرا، ولم تكن المصاعب عندئذ قد زالت من طريق النبي تماما، ولم يكن رعبه وهيبته وحكمه قد استتب بعد صورة كاملة. فكان من الأمور المضحكة أن يقال عندئذ بأن النبي ﷺ سوف يفتح مكة. لذلك قال الله تعالى: ليقل المعارضون ما شاءوا، وليسخر المخالفون كما يحلو لهم..ولكن هذا الأمر سوف يتم بإذن ربك، ونبه المستهزئين: إنكم تعتبرون هذا مستحيلا، ولكن هذا النبأ سوف يتم أمام أعينكم.

كما أورد الله هذا القول أيضا لأن الإنسان يخاف الحرب ويخشى أن يخرج منها بالهزيمة بدلا من الفتح.. ولكن إذا توجه إلى أهدافه المخصوصة فإن ذلك يرفع من

همته. فإذا شعر أحدهم بالقلق داخل نفسه طمأنه هذا القول الإلهي (وإنه للحق من ربك).. أي أنه حق من لدن الله تعالى وسوف يتم بإذنه، وهو حاميكم وناصركم.

ثم إن كلمة (ربك) تشير إلى أن وراء كل عمل دافعا، وإن أفضل دافع لإنجاز عمل أن يحس الإنسان أن هذه هي رغبة ربه المحسن إليه، وفي هذه الصورة فسوف يضحّي بحياته أيضا في كثير من الأحيان. فيجب أن تفكروا أيها المسلمون أن ربكم المحسن إليكم يريد أيضا أن يتم فتح مكة على أيديكم. لسوف يتم هذا في يوم من الأيام، ولكن عليكم أن تفعلوا شيئا تردون به إحسان المحسن..من واجبكم أن تبذلوا في هذا السبيل كل غال ورخيص، ولا تترددوا في تقديم أي تضحية لتحقيق هذا الهدف العظيم.

قوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون). لا تحمل هذه العبارة تهديدا بالعقاب، ولكنها تعني أن الله يرى تضحياتكم، ويعرف أن الإسلام لن يبلغ الكمال ما لم يتم فتح مكة، لذلك عليكم بذل جهودكم ومساعيكم باستمرار، ولا تدعوا هدف فتح مكة يغيب عن الأنظار، والله تعالى لن يضيع أعمالكم. لقد أثار الله بذلك المسلمين لتقديم التضحيات، وقال لهم: إني أرى تضحياتكم، ولكن جوائزكم لن تكتمل حتى تنجزوا مهمة فتح مكة. فحاولوا أن يتم هذا الإنجاز بأسرع ما يمكن..لأنه كلما تأخر إنجازه تأخر رقيكم.

يقول المستشرقون أن الآية (١٥١)تكرار وهذا يخالف الفصاحة(Introduction to the Quran, Richard Bill مدخل إلى القرآن، رتشارد بل)

يقولون ما دام قد أمر آنفا بكلمات لا ينقصها الوضوح في قوله (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام).. فلماذا كرر نفس الكلمات بعده مباشرة بدون فائدة.

ولنتذكر أن قول أعداء الإسلام صحيح إلى حد ما..إذ لا فرق في المعنى بين العبارتين الواردتين في أول الآيتين؛ ولكن ليس صحيحا أن كلتا الآيتين جاءتا

لغرض واحد.. وإنما الهدف من الآيتين مختلف. لو كان الهدف من الآيتين واحـــدًا لكان اعتراض الأعداء صحيحا، ولكن إذا أُعيد الكلام لغرض جديـــد فهـــذا لا يناقض حسن الكلام، ولا ينافي البلاغة، وإنما التكرار الذي يتعارض مع البلاغة فهو ما لا فائدة منه ولا غرض. ومثال ذلك قولنا في مجلس للناس: اجلسوا. ثم نقـــول بعد قليل: اجلسوا. في المرة الأولى كان الكلام موجها للواقفين في ذلك الوقـــت، وفي الثانية لمن لم يجلسوا بعد. فإعادة جملة واحدة هنا ليس مخالفا للفـــصاحة، ولا يسمى تكرارا، لأن لكل جملة غرضا وهدفا.

كذلك ليس هناك أي تكرار في هذه الآية. لأن الله أعاد نفس الجملة السابقة لغرض وحكمة. ففي الآية الأولى بين ضرورة أن تكون النقطة المركزية لحروب المـــسلمين هي فتح مكة . ثم جمع في الآية الثانية فتح مكة وتحويل القبلة وبين سببهما وقـــال: (لئلا يكون للناس عليكم حجة). والحجة دليل يغلب به الإنسان خصمه. وهـــذا ليس تكرارا، لأن المعنى لا يكتمل ما لم يذكر الأمران مرة أخرى. فالله تعالى يقول هنا: إذا لم يتم فتح مكة فسيكون للناس عليكم حجة، وكذلك إذا لم تتجهوا إليها فسيكون لهم حجة عليكم، لذلك لا بد أن تهتموا بالأمرين معا. إذا لم تفتحوا مكة فسوف تبقى عوائق عديدة في طريق رقيكم، وسوف يظل الباب مفتوحـــا علـــى مصراعيه لاعتراض أعداء الإسلام عليكم.

فكلتا الآيتين لهما هدف مستقل. الموضوع الذي ذكر في الآية الأولى بإيجاز ذكر في الثانية بتفصيل وتوسع، وبأسلوب جديد وبتوضيح أكثر للفوائد المتعلقة بفتح مكة وتحويل القبلة.

كما أن الخطاب وُجِّه إلى جميع المسلمين في الآية الثانية، وقيل لهم: أيها المسلمون، أينما أقمتم وحيثما خرجتم..واجبكم أن تحفظوا الكعبة المشرفة، وأن تحموها مـــن هجمات الأعداء. و لم يذكر هذا الموضوع في الآية الأولى.

وهناك زاوية أخرى للنظر تُبطل هذا الاعتراض..فالآية الأولى تناولت أولئك الناس الذين هم على درجة عليا من الأخلاق والروحانية، ويتفوقون على الناس العاديين؛

أو بعبارة أخرى..هم من حيث الروحانية مندمجون في ذات الرسول ﷺ وصاروا أظلالا كاملة له وليسوا منفصلين عنه، ولذلك لم تكن هناك حاجة لذكرهم على حدة، لأن الله تعالى يعلم أن هؤلاء كان يكفيهم حافزا أن يقال (وإنه للحق من ربك). لو تدبرنا وجدنا أن الناس صنفان: صنف من الدرجة العليا، وصنف دون ذلك، ويكفي أصحاب الدرجة العليا الإشارة الرقيقة الدقيقة. أما أصحاب الدرجة الدنيا فهم بحاجة إلى محرك قوي. فمثلا عندما يصلي الأولون لا يخطر ببالهم أي خاطر عما ينالون من جزاء نظير صلاتهم. إنهم يرون أنهم يصلون شكرا لله على إحساناته وأياديه، وليس طلبا لجزاء أو مقابل، يقولون: وهل إحسانات الله وصنائعه السابقة قليلة حتى نتمنى مقابلا وثمنا للصلاة؟ إنهم يرون من عظيم رحمة الله وفضله أنه تعالى هيأ لهم فرصة في هيئة الصلاة لأداء الشكر على أياديه. وعلى نقيض ذلك، فإن أصحاب الدرجة الدنيا لو صلوا بضعة أيام ثم أصابهم ضرر لقالوا: ما ثمرة الصلاة؟ لقد صلينا و لم تنفعنا الصلاة. ومثل هؤلاء يصلون صلاة تجارية يطلبون لها مقابلا؛ ولكنهم ينسون أن الله تعالى – حتى قبل ولادتهم –فد أودع قلوب أمهاتهم حبا؛ وإنه عز وجل –حتى قبل خروجهم إلى الدنيا – قد فجر صدور أمهاتهم ينابيع من اللبن لغذائهم؛ وينسون أن الله سبحانه –حتى قبل مولدهم –خلق في قلوب آبائهم رأفة، ووفقهم لكسب الرزق؛ وينسون أن الله تعالى قد زودهم للرقي الديني والدنيوي بالسمع والبصر وسائر الحواس والقلوب والعقول؛ وينسون أن الله تعالى قد خلق –لاستمرار حياتهم –الشمس والقمر والنجوم والنار والهواء والماء والأرض والغذاء، وينسون أنهم لم يُعطوا هذه النعم نتيجة عمل منهم، وإنما أعطاهم الله إياها بمحض رحمانيته.

وعلى النقيض هناك من عباد الله الذين لا تكفيهم الإشارة الرقيقة الدقيقة، ولا يخطر في بالهم الحصول على أي مقابل. نعم، وإنهم يحبون أن يسألوا الله تعالى ما يحتاجونه من شيء شأن السائلين، ولكنهم –رغم كونهم فقراء محتاجين– لا يطلبون منه جزاء على عمل لهم. إنهم لا يطالبون الله بأي إنعام منه على صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ورعايتهم لأحوال الفقراء، وإنما يرون هذه الأعمال نفسها

إنعاما من الله تعالى.. إذ هيأ لهم بها فرصة لأداء الشكر على نعمه. لقد حكيت لكم مرارا قصة أحد أولياء الله تعالى، الذي استمر طيلة عشرين سنة يردد دعاء واحدا، و لم يحظ دعاؤه هذا بالقبول. وأثناء هذه الفترة زاره أحد مريديه. وبينما هذا الولي يردد دعاءه في هدأة الليل تلقى إلهاما أن دعاءه هذا لن يقبل. وأراد الله تعالى أن يسمع المريد هذا الإلهام، ولكنه سكت بدافع الخجل والاحترام و لم يقل للولي شيئا. وفي الليلة التالية نهض الولي كعادته من نومه وأخذ يردد نفس الدعاء إلى أن تلقى نفس الإلهام بأن دعاءه لن يقبل. وأسمع لله المريد هذا الإلهام، ولكنه سكت أيضا. وفي الليلة الثالثة كان الولي جالسا على مصلاه فتلقى نفس الإلهام، وسمع المريد صوت الإلهام، و لم يستطع السكوت، فقال للولي: إذا لم يقبل الدعاء مرة أو مرتين فلا بأس أن يكرره الإنسان، ولكن قد قيل لك مرارا أن دعاءك هذا لن يقبل، ومع ذلك لا تنفك تردده وتسأله؟ فقال الولي: إنك تعبت في ليلتين أو ثلاثة؟ إنني أردد هذا الدعاء منذ عشرين عاما، وأتلقى في كل مرة نفس الجواب، ولكنني مستمر في دعائي.. وأنت تريدني بعد أن سمعت هذا ثلاث ليال أن أتركه؟ إن عملي هو أن أسأل الله، وإن عمل الله تعالى أن يقبل أو يرفض. فأنا أقوم بعملي، والله يعمل عمله، وله كل الخيار أن يقبل أو يرفض.

فعباد الله من الطراز الأول لا يضيقون، وإنما يقومون بواجبهم وأعمالهم، ولا ينتظرون لها مقابلا أو جزاء. لذلك كان كافيا أن يُقال لهم (وإنه للحقّ من ربك)ليعلموا أن الله تعالى يرغب في أن يقوموا بهذا العمل.

أما في الآية التالية فإن الله وجّه قوله لأولئك الذين هم أصحاب الإيمان الأدنى – وهم عادة يسألون عن أجرهم قبل القيام بالعمل –لذلك تناول الله ذكرهم، وقال بأن ثمار فتح مكة تتمثل في نعم كذا وأفضال كذا. (لئلا يكون للناس عليكم حجة).. إنكم لو خرجتم لفتح مكة فأول نعمة تنالونها من الله هي أنه لن يبقى لدى الناس فرصة للاعتراض عليكم، ولن تكون بيدهم أية حجة ضدكم.

والإنعام الثاني هو (ولأتم نعمتي عليكم).. أي سوف توهبون من الله الحكومة والملك.

والإنعام الثالث هو (لعلكم تهتدون). والهداية في الحقيقة تعني الوصول إلى الهدف والمقصود، فتشير هذه الكلمات إلى أنكم سوف تلتقون بأصدقائكم وأقاربكم. من قبل كان المرء منكم بعيدا عن زوجته، والزوجة نائبة عن زوجها، والابن عن أبيه، والأب عن ابنه، ولكن بخروجكم إلى مكة سوف تحققون منفعة أخرى..فتلتقون بأهليكم هؤلاء. وسوف تزول الخصومة والنزاع الذي انفصلتم بسببه عنهم.

الإنعام الأول إنعام "معنوي" عقلي.. أي تنالون طمأنينة ذهنية. والإنعام الثاني إنعام مادي.. أي تنالون الحكم والملك. والإنعام الثالث إنعام قلبي.. أي تلتقون بأقاربكم وتنالون راحة وطمأنينة قلبية.

فالأمر الأول في الآية الأولى كان لهدف، أما الأمر الثاني في الآية الثانية فكان لهدف آخر. ففي الأمر الأول تناول موضوع الحرب، وبين الهدف من ذلك (وانه للحق من ربك).. أي أن الله تعالى قد وعد بذلك، فمن واجبكم أن تسعوا وتبذلوا الجهد لتحقيق ما وعد به محبوبكم. فكأنه ذكر هدفا ساميا لا ينظر إليه إلا أصحاب الإيمان الكامل، وبين أنه كما يجب أن يكون هدفكم الأسمى هو نيل رضوان الله تعالى وتحقيق مشيئته بغض النظر عن أي مقابل أو إنعام، كذلك من مقتضى علاقتي السامية معكم ألا أهمل أعمالكم، ولا أدع شيئا يضيع منها. فإذا ما بذلتم جهودكم فسوف تثور غيرتي، وأنزل عليكم أتم البركات.

وفي الأمر الثاني أعاد نفس الحكم لأولئك الذين لم يكونوا على المقام العالي من الإيمان كما تبوّءه الأولون، و لم يكونوا أظلالا كاملة للرسول ﷺ، وبين لهم أنكم تنالون ثلاث فوائد من فتح مكة: أولها أن العدو لن يستطيع الاعتراض عليكم؛ وثانيها أنكم تنالون بالفتح الدنيوي الأمن والأمان، وثالثها أنكم سوف يلتئم شملكم مع أعزائكم وأقاربكم الذين فارقتموهم وانفصلتم عنهم بسبب الاختلاف الديني. فكأنكم تنالون الراحة من ثلاثة أنواع: روحية ومادية وقلبية. ولما كانت الفوائد المذكورة في الآية الثانية هي أدنى من الغرض المذكور في الآية الأولى، وأراد الله تعالى ضم جماعة الإيمان العادي إلى أصحاب الإيمان العالي..ذكر الله تعالى هذا الأمر وأعاده مرة أخرى، ولما كانت هذه الفوائد مما تحصل عليه الجماعة العليا

أيضا..لذلك ذكرهم الله معهم. لو لم يذكر هؤلاء معهم لنشأ تساؤل: إذا كان أصحاب الإيمان الأدنى ينالون هذه النعم أفلا ينالها أصحاب الإيمان الأعلى؟ ولإزالة هذه الشبهة ذكر الله هؤلاء أصحاب الإيمان العظيم، وبين أنهم وإن كانوا لا يطمعون في الإنعامات ولا يبالون بالجوائز على أعمالهم.. إلا أنهم لن يبقوا محرومين من الفوائد والمنافع المنوطة بفتح مكة، بل سيتمتعون بها كما سيتمتع بها الآخرون. والعجيب أن الله تعالى لم يقل هنا (حيثما خرجتم) بل قال (حيثما كنتم). ذلك أنه كان بين المسلمين بعض الضعفاء والمعوقين من المرضى والعرج وغيرهم الذين حال ضعفهم البدني دون المشاركة في القتال. وبالنظر إلى هؤلاء قال الله تعالى (وحيثما خرجتم) بدلا من "حيثما كنتم "..لبيان أن الثواب ليس وقفا على المشاركين عمليا في القتال، بل سيحظى به أيضا من لا يقدرون على الخروج بسبب ظروفهم القهرية..كالمريض الذي يلازم الفراش أو المعوَّق الذي لا يستطيع الحراك وغيرهما من الضعفاء الذين منعهم ضعفهم من الاشتراك في فتح مكة. وللحيلولة دون صدمة لأولئك الذين منعتهم ظروفهم القهرية من القتال.. قال الله تعالى (حيثما كنتم).. ليطمئنوا إلى أنهم يُعَدّون من المشاركين في الحرب. فلو أن هؤلاء استمروا في الدعاء لفتح مكة، و لم تنفك قلوبهم تتحسر شوقا، يتمنون لو أنهم قادرون على الاشتراك في القتال.. فإن الله تعالى لن يضيع أجرهم، بل سوف يثيبهم كما يثيب أولئك الذين يخرجون فعلا للقتال، فالضعيف والمعوق الذي يعجز عن الاشتراك في الحرب، يمكن له أن يدعو ليل نهار: يا رب، اكتب الفتح للمسلمين، وأدخلهم مكة منصورين، أو لو أنه جاءه شخص غير مسلم فيبلغه رسالة الإسلام ويدخله فيه.. فيعتبر كمثل المشارك عمليا في القتال والحرب.

ولاختيار جملة (حيثما كنتم) بدلا من (حيثما خرجتم) حكمة أخرى.. وهي أن يغطي بها زمن السلم عندما لا يكون هناك حرب. فأمر الله تعالى بذلك المسلمين أنه عندما تخرجون للحرب، وكذلك عندما تكونون في البيوت وقت السلم.. يجب أن يكون فتح مكة أمام أعينكم دائما في كلا الحالين، ولا يغيب عن أنظاركم أبدا.

كما أن هذه الكلمات تنبه المسلمين إلى أن عليكم الاهتمام الدائم المستمر بترقية مركزكم، وبتعليم أهليكم وإصلاحهم وتربيتهم. تذكروا أنه لو حدث فساد أو خلل في مكة المكرمة فإن هذا سوف يؤثر في العالم الإسلامي كله، ولو تقدمت وازدهرت مكة فهذا أيضا سوف يؤثر في العالم الإسلامي كله؛ لأن الناس سوف يأتون مكة مرة بعد أخرى للحج والعمرة، ويجتمعون هناك من كل أطراف العالم، فمن واجبكم ألا يحدث فيها أي خلل أو فساد، لأنه لو حدث ذلك فلا بد أن يؤثر على العالم.

في زمننا هذا أيضا..لا يزال معارضونا يقولون عن سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليه السلام)كيف يمكن لنا أن نعتبره صادقا في دعواه.. ما دام علماء مكة المكرمة قد أصدروا الفتوى بكفره؟ من هنا يمكن أن تقدروا مدى أهمية صلاح أهل مكة. لا شك أن بيت الله لن يقع –بفضل الله تعالى – في أيدي غير المسلمين، ولكن مكة يمكن أن تتعرض للهجمات الشيطانية، وهي تتعرض فعلا. كذلك يمكن أن تقع في أهلها أنواع من الفساد والسوء، لذلك ينصح الله المسلمين في هذه الآية: أيها المسلمون، حيثما تقيمون في أرجاء هذا العالم.. فمن واجبكم أن تهتموا بمكة، وتعتنوا بإصلاحها ورقيها دائما.

وللأسف الشديد، فإن المسلمين قد أهملوا هذا الواجب الهام، وكانت النتيجة أن العديد من المفاسد والسيئات قد تسربت فيهم أنفسهم. عندما أدرس التاريخ الإسلامي أتحير برؤية أن عدد سكان مكة والمدينة كان يتراوح بين عدة آلاف إلى مائة ألف على الأكثر، في حين أن عدد سكان بغداد ودمشق والقاهرة وبعض المدن الأخرى في إيران والهند وغيرها كان يبلغ المليون أو المليونين. إنني أرى أن من أكبر أسباب انحطاط الأمة الإسلامية أن المسلمين لم تبق عندهم الرغبة في الإقامة في مركزهم الروحاني بقدر رغبتهم في الإقامة في العواصم السياسية والحكومية، وكانت النتيجة أن الأساس بقي صغيرا، وصار البناء كبيرا؛ ولا يبقى البناء الضخم على أساس صغير.

إن كل إنسان فيه بعض المزايا وبعض المساوئ، وإذا كان يرتكب بعض الأخطاء فإنه أيضا يقوم ببعض الأعمال الحسنة. فمثلا –أدولف هتلر–الزعيم السابق لألمانيا، الذي جاهد كثيرا لترقية شعبه، لو كان فيه إسلام لكان باليقين رجلا عظيما. ولكن لم يكن الدين مربيا له فوقع في كثير من الأخطاء، وبدلا من أن يأخذ قومه إلى الرقي..دفع بهم إلى الانهيار والزوال. ولما كان معماريا لذلك كان لكل ما يتعلق بالبناء والعمارة تأثير شديد فيه. لقد كتب في كتابه المشهور (كفاحي Mine Kampf ص ٨٠-٩٦)، الذي بين فيه خطته للعمل والذي عرض فيه بحثا طويلا ليدلل على أن الشعب الألماني هو الأجدر والأحق بأن يكون الأكبر في أوروبا.. يقول: إن البناء الكبير يبنى فقط على أساس كبير، فلو أقمتم أساسا مساحته أربعة أذرع، وشيدتم عليه بناء سعته أذرع فلا بد أن يسقط هذا البناء، ولكن إذا كان الأساس أربعة والبناء ثلاثة أذرع فسوف يكون بناء أقوى. ولبناء العمارات الكبيرة الشاهقة لا بد أن يكون الأساس قويا متينا كبيرا. ينبغي أن يكون اتساع الأساس أكبر من اتساع المبنى. انظروا إلى الأهرامات المصرية القائمة الصامدة لآلاف السنين..تجدوا السبب أنها مشيدة على شكل مثلث.. قمته صغيرة المساحة وقاعدته شديد الاتساع. هذه الأبنية قد أقيمت قبل موسى –عليه السلام– بمئات السنين، ولم يقم أحد بترميمها، ولكنها تقف شامخة إلى اليوم. والسبب في ذلك أن أساس أحدها يبلغ ٥٠ فدانا، بينما القمة مدببة؛ فيتوزع الثقل على الأساس بتوازن واعتدال فلا يسقط البناء. يقول هتلر: إن ألمانيا أكبر بلاد أوروبا، وسكانها يبلغون ثمانين مليونا. في حين أن بريطانيا أربعون مليونا، ومثلها أسبانيا وفرنسا وإيطاليا. فلو أن هذه البلاد وسعت رقعتها لضعفت قوتها، وتغلب عليها البلاد الأخرى. ولكن أساس ألمانيا قوي وكبير، ولذلك يمكن لألمانيا ذات الأساس العريض أن تتوسع بضم بعض المناطق الروسية إليها، حتى إذا تم فتحها صارت جزءا من ألمانيا واستوعبتها بسهولة، ولا يستطيع أهل هذه المناطق التغلب عليها.

ولكن المسلمين لم يعرفوا هذا السر حق معرفته، مع أن القرآن قد أخبرهم به، فمن ناحية، أمر الله سيدنا إبراهيم فرفع أسس الكعبة المشرفة، ومن ناحية أخرى أمر

الناس أن يحجوا هذا المكان من كل أرجاء العالم، وأيضا أمرهم بالعمرة.. وبهذا نبههم إلى زيارة هذا المكان في كل أيام السنة. وأيضا قال النبي ﷺ عن المدينة أنه يجب على كل القبائل أن يرسلوا مندوبين لهم إليها ليمكثوا فيها ويتعلموا الدين. ولكن المسلمين لم يدركوا هذا السر، فكانوا يعمرون مراكزهم السياسية، وكانت كل عاصمة سياسية لهم أكثر سكانا من مركزهم الديني، وكانت النتيجة أن أكثر الناس اتجهوا إلى المراكز السياسية وظل المركز الديني ضعيفا. إنني أرى أن الإسلام لم يصبه الضرر بأكثر مما أصابه من دمشق أو بغداد أو القاهرة أو أصفهان أو بخارى أو ري أو مرو، لأن هذه المدن شغلت اهتمام الناس عن المراكز الدينية وجذبتهم إلى نفسها. لو كانت مكة والمدينة أكبر المدن ما حدث هذا الفساد والخراب. أنشئت الجامعات في بغداد مع أن مكانها الصحيح هو المدينة. وأقيمت جامعة الأزهر في القاهرة مع أن مقرها الصحيح هو مكة. الأمة التي تريد نشر قوتها الروحية والعلمية.. عليها توسيع وتوطيد مركزها الديني إلى أقصى حد ممكن. وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره). وينصح المسلمين أن يهتموا دائما بمكة، وبإصلاح أهلها، لأنها مكان للحج والعمرة وغيرهما من الأهداف والمقاصد الدينية. ولو تسرب الفساد إلى أهلها ولم يعودوا صلحاء..فلسوف يتأثر بهم زائروها وينتقل إليهم الفساد.

الحقيقة أنه كلما كان المركز قويا كلما كان نظام الجماعة قويا، واستمرت الجماعة في الترقي في المجالات الروحانية. فعلى الذين يقيمون خارج المركز أن يعتنوا ويهتموا به اهتماما خاصا، وعلى أهله أيضا أن يهتموا بإصلاح أنفسهم، ويسعوا للرقي في مجال الخير والروحانية دائما.

قوله تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة). هنا يقول الله تعالى أن الهدف من هذه الأوامر هو ألا يجد الكفار دليلا يسبب لكم الخجل والندم. لا شك أن الرجال الروحانيين لا يبالون إذا أثيرت في وجوههم الاعتراضات، ويقولون لا بأس فليعترضوا، ولكن أصحاب الإيمان الضعيف يعيرون لهذا الأمر اهتماما كبيرا، ويقولون إن الناس يعترضون علينا بكذا وكذا، وأحيانا يضيقون ويرتدون. فيقول

الله لهم: حسنا، ننيط بكم هذا الأمر، فأنجزوه بهمة حتى لا يكون في يد العـــدو أي حجة عليكم تخجلون لها.

هذا الاعتراض كان يمكن أن يوجه من خمسة وجوه:

الأول–ورد في كتب اليهود أن هذا النبي الموعود سوف يأتي ويفتح مكة بعـــشرة آلاف من القدوسيين (تثنية٣٣:١-٢). فلو أن المسلمين لم يفتحوا مكـــة لكـــان لليهود أن يعترضوا بأن النبأ الوارد عن النبي الموعود لم يتحقق على يد هذا الـــنبي، فكيف نصدقه؟

الثاني–كما كان يمكن لهم أن يعترضوا بأن القرآن قد تنبأ بنبأ وثبت خطأه. فقـــد قال: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) (القصص٨٦).. فالله تعـــالى الذي فرض عليك القرآن هو الذي سوف يرجعك إلى هذا المكان الـــذي يـــزوره الناس في الحج والعمرة مرة بعد أخرى. فإذا لم يتم فتح مكة على أيدي المـــسلمين لسنحت لأعداء الإسلام فرصة الاعتراض ولقالوا إن القرآن –فضلا عن التوراة – يتنبأ بفتح مكة ولكن لم يتحقق هذا النبأ.

الثالث –لو لم يؤمر المسلمون بالاتجاه إلى الكعبة لأثار هؤلاء الخصوم اعتراضا آخر بأن النبي الذي دعا من أجله إبراهيم (عليه السلام)كان له علاقة ببيت الله، وقـــد كان مقدرا أن يأتي لعمران هذا البيت (البقرة: ١٣٠)، ولكن محمـــدا جـــالس في مكان آخر ولا علاقة له بالكعبة. فكيف نعتبره مصداقا للدعاء الإبراهيمي؟

الرابع –ولو لم يتم فتح مكة لاعترض الناس بأن الهدف من بعث هذا النبي هو نشر التوحيد، ولكن لا يزال في الكعبة المـــشرفة ٣٦٠ صـــنما (البخـــاري، كتـــاب المغازي).. فكيف تحقق النبأ الذي يقول إنه جاء ليطهر هذا البيت.

الخامس –لو لم يتم فتح مكة لقال المعترضون أن النبأ القائل (وابعث فيهم رســـولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة) (البقرة:١٣٠) لم يتحقق. لقد قيل إن هذا الرسول سيبعث لإصلاح أهل مكة، ولكن أين تحقق هذا النبأ وكيـــف تم؟

إذن فلو لم يتم فتح مكة وإصلاح أهلها لأثار العدو أنواع الاعتراضات، لذلك أمر المسلمين بفتح مكة على وجه خاص، وقال لهم: يجب ألا يقع هناك سوء ولا فساد.. وألا يجد العدو دليلا لا تستطيعون دحضه. ولكنكم لو قمتم بفتح مكة فلسوف تفحمونه ولن يستطيع الاعتراض عليكم.

قوله تعالى (إلا الذين ظلموا منهم).. يمكن أن يكون الاستثناء هنا متصلا، وقد يكون منقطعا. ولو اعتبرناه متصلا فمعناه أنكم إذا فتحتم مكة فلن يبقى لأحد اعتراض عليكم إلا الذين ظلموا.. فهؤلاء لن يزالوا في إثارة الشر، وسوف يروجون الأقاويل، ولكن قولهم لا يستحق أي اهتمام.

ويكون الاستثناء منقطعا إذا كانت الحجة بمعنى الغلبة، والمعنى: لا تخافوا الظالمين منهم بل خافوني فقط..لأنكم ما دمتم قد تمكنتم من التغلب عليهم فلن يضروكم شيئا.

وكما جاء في شرح الكلمات فإن "إلا" تكون أيضا بمعنى"لكن"، وبناء على ذلك يكون المعنى: بعد فتح مكة لن يبقى في أيدي الناس عموما أي حجة ضدكم، ولكن لو استمروا في الاعتراض فلن يكون هذا منهم إلا ظلما، ولا منطق في ذلك.

وكذلك ترد "إلا" بمعنى "الواو العاطفة"، ويكون المعنى: ذلك كيلا يكون للناس عموما عليكم حجة ولا للذين ظلموا منهم خاصة. أي بعد فتح مكة سوف تتم الحجة على أعداء الإسلام بحيث إنه سوف يسد أفواه الظالمين أيضا ولن يستطيعوا الاعتراض.

وفي قوله تعالى (ولأتم نعمتي عليكم) يقول الله: إننا أصدرنا هذا الأمر لإتمام نعمتي عليكم. والمراد من النعمة هنا الإسلام، ويعني إتمامه توطيده بصورة كاملة. وهذا البرنامج كان أيضا من أهداف فتح مكة، فبمجرد أن تمّ فتحها تواردت على النبي ﷺ وفود العرب من كل الجزيرة العربية، يمدون إليه يد السلم (البخاري،المغازي). وفي آخر الأمر، ونتيجة لهذا الفتح، دخلت كل الجزيرة العربية في الإسلام. ثم إن العرب في مدة وجيزة جدا نشروا الإسلام في كل العالم. وتلك النعمة، ونعمة الإسلام التي نزلت من الله لبني نوع الإنسان توطدت واستحكمت في العالم.

قوله(ولعلكم تهتدون) أي أن من فوائد فتح مكة أن الله سوف يفتح أبواب الهادية لأمتكم، فيدخلون في الإسلام جميعا. فإسلام قومك رهن بفتح مكة. صحيح أن العديد من الناس كأفراد دخلوا الإسلام قبل فتحها، ولكن الآخرين كانوا يرون أنه لو فتح هذا النبي مكة فدينه صادق، وإذا لم يتمكن من فتحها فهو كاذب. (البخاري، كتاب المغازي). وعندما تم فتحها عرفت القبائل العربية أن الإسلام دين حق فجاءت وفودها من كل ناحية لإشهار دخولها في الإسلام. بل إن بعضا من ألد أعداء الإسلام دخلوا في بيعة النبي ﷺ بعد فتح مكة، وأبرز مثال لذلك "هند".

كانت قبل هذا الفتح من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، وكانت من بين الأفراد الذين أصدر الرسول الأمر بقتلهم عقابا لهم. كانت امرأة ذكية جدا، فاختفت أثناء الفتح في بيتها و لم تخرج منه، وعندما ذهبت النساء لمبايعة الرسول ﷺ خرجت متحجبة – وكان الأمر بالحجاب قد نزل من قبل –وانضمت إلى النساء وبايعته. و لم يكن النبي ﷺ يعرف أن هند بين النساء. وعندما ردد في كلمات البيعة "ألا يشركن بالله شيئا"، قالت هند "يا رسول الله، هل نشرك بعد هذا الذي جرى؟ كنت وحيدا وكل القوم والعرب في جانب أصنامهم التي زعموا أنها تساعدهم، فنصرك الله.. فكيف يمكن أن نشرك به؟ ولما سمعها النبي سأل: هل هذه هند؟ قالت نعم يا رسول الله، ولكنك الآن لا تستطيع أن تنال مني فقد دخلت في بيعتك. (السيرة الحلبية ج٣ ص١١٠).

فقد كان فتح مكة آية عظيمة حتى أن عدوا لدودا مثل هند أدركت أن الحق قد حصحص وظهر تماما.

وكان السبب الثاني لدخول العرب في الإسلام أنهم كانوا على يقين أنه لا يستطيع صاحب دين كاذب فتح مكة أبدا؛ ولو حاول فسوف يدمر ويباد. وكان عندهم حادث من الماضي القريب كمثال لذلك. ففي عام المولد النبوي حاول حاكم اليمن أبرهة غزو مكة، ولكنه فشل في ذلك رغم جيشه الكبير، وتفشى في جنوده وباء شديد فدمرهم، فرجع خائبا خاسرا (السيرة النبوية لابن هشام ج١، أمر الفيل). فعرف العرب أن الله تعالى يحفظ بيته الحرام ولا يستطيع أحد الاستيلاء عليه

بحد السيف. لذلك عندما فتح النبي ﷺ مكة أدرك العرب وتيقنوا أنه صادق وأن دينه من عند الله، فدخلوا في الإسلام أفواجا.

وهناك حديث يؤكد أن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة، فقد قيل: كانت العرب تلوَّم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومَه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم (البخاري، المغازي).

وأيضا كما بينا من قبل فإن قوله (لعلكم تهتدون) يعني أيضا أنكم سوف تلتقون بأهلكم وأعزائكم، وتزول ما بينكم من نزاعات وحروب.

فكأن هناك ثلاثة أنواع من النعمة التي سوف تحظون بها: الأول –أن لا يكون للناس عليكم حجة، فبفتح مكة تنالون الراحة الذهنية، وسوف يُفحَم العدو ولن يثير أي اعتراض.

الثاني –ولأتم نعمتي عليكم، وهو الإنعام المادي، فتنالون الحكم والملك، ويتوطد الإسلام أولا في الجزيرة العربية، ثم يخرج منها وينتشر في العالم كله.

والثالث –لعلكم تهتدون: فهنا ذكر إنعاما قلبيا، وذلك بسبب إسلام قومكم سوف تزول القطعية التي كانت بينكم وبين أقاربكم، ويزول عن قلوبكم هذا الاضطراب والقلق.

فهذا ليس تكرارا، وإنما فيه إضافة موضوعية. فهذه الآية أيضا تتضمن موضوع فتح مكة. وهناك دليل آخر على ذلك: فسورة الفتح التي تتناول موضوع فتح مكة ذكرت نفس الأهداف من هذا الفتح كما ذكرت هنا. يقول الله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما *) (الفتح: ٢-٣).. إننا وهبناك فتحا مبينا عظيما، وسيكون ثمرته أن الله سوف يغفر كل الذنوب التي ارتكبت ضدك، والتي يحتمل أن ترتكب في المستقبل.

فهذه الآية تذكر ثلاثة أهداف لفتح مكة: الأول-دفع اعتراض الأعداء، وهذا في قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر). والمراد من (ذنبك) هنا الاعتراضات التي تثار ضدك.. لأنهم بعض ألا حيان ينسبون فكرة أحد إلى

غيره..كأن تقول (هذا ذنبي) معبرا عن تصور غيرك أنه ذنبك، وكما جاء في القرآن الكريم (ولهم علي ذنب) (الشعراء: ١٥) يقول سيدنا موسى أنهم يتصورون أني ارتكبت ذنبا في حقهم. يقول الله: بتحقق نبأ فتح مكة سوف يدفع الله الاعتراض الذي يثيره المخالفون بأنك نبي كاذب. ليس هذا فقط، بل إن هذا الدليل سوف يفحم كل المعترضين في المستقبل أيضا.

والغرض الثاني لفتح مكة هو إتمام النعمة(ويتم نعمته عليك).

والثالث سوف تتقدمون وتترقون في طريق الهداية (ويهديك صراطا مستقيما). هذه الأغراض الثلاثة قد ذكرت في الآية المفسرة وفي سورة الفتح أيضا.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(١٥٢)

شرح الكلمات:

كما –تأتي للمشابهة، وأيضا للسببية، كما قال الشاعر "لا تشتم الناس كما لا تُشتم" أي لما لا تشتم (البحر المحيط).بمعنى لا تشتم الناس لأنك لا تشتم من قبل الناس.

التفسير: إذا كانت "كما" للمشابهة فتعني الآية أن النعمة التي ذكرناها سوف نتمها عليكم مثلما أرسلنا فيكم رسولا بحسب الدعاء الإبراهيمي، وأكملنا عليكم مِنَّتنا من قبل.

الحق أن الدعاء الإبراهيمي له شقان: الأول –أن يبعث الله فيهم رسولا، والثاني – أن يُعِدَّ هذا الرسول جماعة طاهرة: فلم يكن إبراهيم يريد أن يبعث رسول ويبقى القوم كما هم ضالين، أو يأتي رسول ولا يطهرون. فمن مقتضى دعاء سيدنا إبراهيم أن يبعث رسول ويتم الجانب الآخر المترتب على البعث.. وهو إعداد جماعة طاهرة مستعدة للتضحية في كل غال ورخيص في سبيل دين الله.

ولو كانت "كما" بمعنى "لما".. فالمعنى أننا أمرناكم بهذا لأننا قد مننا عليكم إذ بعثنا إليكم رسولا منكم، ويتلو عليكم آياتي، ويطهركم ويرفعكم إلى المدارج العليا من الروحانية، ويعلمكم الشريعة، ويطلعكم على ما وراءها من حِكم دقيقة وأسرار خفية، ولا يعلمكم ما جاء في الصحف القديمة فحسب، بل يزيد عليها ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.. فعليكم أن تذكروني كي أمنحكم حظوة عندي، واشكروني على النعم التي تنزلت مني عليكم بطريق هذا الرسول، ولا تكفروني.

ومما لا شك فيه أن بداية كل دين كانت من ذات النبي نفسه، ولكن ليس هناك دين يقدم نبيه على أنه مكلف ببيان كل الحكم لجميع الأمور الدينية، وإنه أسوة حسنة لجميع الإنسانية. فالمسيحية –وهي أقرب الديانات زمنا قبل الإسلام –تعتبر المسيح ابن الله، وبالتالي لا تترك للإنسان فرصة لاتباع خطواته، لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون مثل الإله. أما موسى فلا تقدمه التوراة كأسوة حسنة. أما بيان حِكم الأوامر الإلهية..فلا التوراة ولا الإنجيل يقدمان شيئًا يفيد أن موسى أو عيسى جاءا لهذا الغرض. ولكن القرآن يقول عن محمد رسول الله (يعلمهم الكتاب والحكمة).

فالإسلام يمتاز عن سائر الأديان بأن نبيه قد جاء أسوة حسنة للعالم كله، وأنه لا يفرض أحكامه بالجبر والإكراه، وإنما يقوي إيمان أتباعه ويلهب فيهم الحماس ببيان ما يكمن في هذه الأحكام الإلهية من مصالح الأفراد وللملة وللإنسانية جمعاء. هذه الآية تشبه الدعاء الإبراهيمي المذكور من قبل، ولكن هناك فرقان جديران بالملاحظة بينهما: فدعاء إبراهيم يقول (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) (البقرة: ١٣٠). وفيه ذكر إبراهيم تلاوة الآيات أولا، ثم تعليم الكتاب، والحكمة، والتزكية. ولكن هنا جعل الله الترتيب هكذا: تلاوة الآيات، ثم التزكية، وتعليم الكتاب، والحكمة. وينشأ سؤال منطقي طبيعي: لماذا غير الله الترتيب هنا؟

يجب أن نتذكر أن الدهاء الإبراهيمي مبني على مبدأ أنه كلما يبعث الله نبيا إلى الناس فإنه –أولا وقبل كل شيء –يتلوا آيات الله تعالى، أي يقدم الوحي النازل

عليه، ويرى الآيات المؤيدة له والمعجزات الدالة على صدقه، وبعد ذلك تنـــزل الأحكام والأوامر شيئا فشيئا مع حكمتها التي تبين الهـــدف منـــها، ثم في نهايـــة المطاف.. بعد رؤية الآيات والمعجزات والتدبر في الأدلة والبراهين، وفهم الحكمـــة من هذه الأوامر.. يهب الله لجماعة النبي تلك القداسة والطهارة التي بسببها يتغلبون على الآخرين.

أما هنا فقد اختار الله تعالى ترتيبا آخـــر، فـــذكر أولا مـــا يتعلـــق بالإيمانيـــات والروحانيات، فالتزكية تتعلق بالقلب، وتلاوة الآيات تتعلق بالإيمان. ثم ذكر مـــا يتعلق بالعلوم الظاهرة.

ولو تدبرنا لوجدنا أن الأهم والأولى من حيث المعرفة هو أن يوهب الإنسان عيونا يستطيع بها مشاهدة آيات الله تعالى، وثانيا –أن تزكّيه مشاهدة آيات الله تزكيـــةً تجعل قلبه عرشا لله تعالى، حتى تنعكس في مرآة قلبه الصفات الإلهية. عندما يصقل نورُ المعرفة القلبَ الإنساني صقلا لا يبقى معه أي كدورة نفسية ولا شائبة مادية في قلبه، عندئذ يصبح مظهرًا لصفات الله، وهذا هو الهدف والغاية من الحياة الإنسانية. لذلك قدم الله تزكية النفس على الأمور الأخرى بعد ذكر تلاوة الآيـــات. وبعـــد التزكية ذكر تعليم الكتاب وتعليم الحكمة، وهي علوم ظاهرة، وبتأخيرها أشار إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأحكام والعبادات وحِكَمَها ليـــست مقصودا حقيقيا أصيلا، وإنما المقصود الحقيقي هو تزكيـــة الـــنفس، والاتـــصاف بصفات الله جل علاه، ولذلك لو دعا نبي الله أحدا وهو يصلي فمن واجبه أن يترك الصلاة ويلبي نداء نبي الله، لأنه مظهر كامل لصفات الله، وكأن صوته صـــوت الله تعالى، إنني أتذكر أنه مرة نادى سيدنا المهدي والمسيح الموعود (عليـــه الـــسلام) شخصا كان يصلي فترك الصلاة وجاءه. فاعترض بعض الناس على ذلك، فقـــال سيدنا المهدي: لو كان أحد يصلي وناداه نبي الله تعالى فيجوز له ترك الـــصلاة في ذلك الوقت (مرزا بشير أحمد، سيرة المهدي، ج١ الرواية ١٥٧).كـــذلك نـــادى سيدنا المهدي ذات مرة سيدنا الحكيم نور الدين وهو في صلاته فانـــصرف مـــن

الصلاة وحضر إليه. ويبدو أن سيدنا المهدي قد استند إلى قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسو إذا دعاكم لما يحيكم)(الأنفال: ٢٥).

إذن ليست الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها المقصود الأصلي وإنما هي أسباب للوصول إلى الله تعالى، وذرائع لتزكية النفس البشرية من كل أنواع الشوائب الروحانية. فمهما قال الإنسان أنه مؤمن بكتاب الله تعالى فدعواه هذه لا تساوي حبة خردل إذا لم يكن قلبه نقيا.

وبعد ذكر التزكية قدم تعليم الكتاب على تعليم الحكمة، ذلك لأن صاحب الإيمان الأعلى إنما يرى هل هذا الأمر من حبيبه أم لا، فإذا كان الأمر من حبيبه فإنه يبادر إلى عمله بدون تردد، ولكن من كان إيمانه دون ذلك فإنه أولا يسأل عن الهدف والحكمة من الأمر، ومن دون ذلك لا يعمل. المؤمن المخلص الصادق يكفيه أن هذا الأمر من الله تعالى. فيلبي صوت الله ويسرع إليه، ولكن الفلسفي يبحث عن حكمة الأمر، وما لم يطمئن عقله لا يطمئن قلبه. فلو أن الإنسان حضّ الأم على الاعتناء بطفلها محاولا إقناعها عن طريق الأدلة، وقال لها: لو لم تعتني به فسوف يختل نظام البيت ويقع الفساد كذا وكذا.. فإن هذه الأدلة لن تؤثر فيها أدنى تأثير، وإنما هي تقوم برعاية الطفل بسبب عاطفة الحب الموجودة في قلبها. لذلك قال سيدنا المهدي: إن إيمان العجائز هو الذي يحمي ويقي الإنسان من العثار، أما الذين يقعون في البحث والحجة ويتوقفون عند كل خطوة، ويقولون لماذا أمرنا بكذا وكذا، فإنهم في كثير من الأحيان يتعثرون ويضيع ما بقي عندهم من إيمان قليل. ولكن صاحب الإيمان الكامل يؤسس إيمانه على المشاهدة والرؤية. إنه يسمع لأدلة الآخرين، ولكنه لا يتأثر باعتراضاتهم؛ لأنه يكون قد رأى الله تعالى بعيونه الروحانية. ويحضرني بهذه المناسبة حدث طريف وقع مع المنشي أرُورَيْ خان –أحد صحابة سيدنا المهدي عليه السلام. كان يقول لي: قال لي بعض الناس..لو سمعت المولوي ثناء الله الأمرتسري مرة لأدركت هل المرزا [أي سيدنا المهدي]صادق أو كاذب. فسمعت لخطابه مرة. فسألني الناس: أخبرنا الآن.. هل بعد سماع كل هذه الأدلة من المولوي تظن أن المرزا صادق؟ فقلت: إنني رأيت وجه المرزا، وبعد ذلك

لو أن المولوي الأمرتسري ألقي خطابه طوال سنتين أمامي ما أثر خطابه أي تأثير، ولن أستطيع القول بأن هذا الوجه كاذب. وإن لم أجد ردا على اعتراضاته فلسوف أستمر في قولي إن المرزا صادق.

فمعرفة الحكمة ليست ضرورية للمؤمن الكامل، لأنه إيمانه ليس مبنيا على العقل وإنما على المشاهدة؛ لذلك فهو لا يحتاج إلى معرفة وتفهم الحكمة من أمر الله تعالى. أما صاحب الإيمان الضعيف الذي يتحدد إيمانه في دائرة الأدلة فهو محتاج إلى معرفة الحِكم. والإيمان الكامل يتأسس على المشاهدة. أما الإيمان الناقص فعلى الحِكمة. فأصحاب الإيمان الكامل يكفيهم أن يتلو عليهم النبي آيات الله ويزكيهم. إنهم لا يرون حاجة إلى تفهم الحكم لآيات الله وأهدافها، وإنما يكتفون بسماع صوت النبي، وينهمكون في العمل كالمجانين للوصول إلى معرفة الله تعالى. مرة كان النبي ﷺ يخطب وقال أثناء خطابه للواقفين حول المجلس: اجلسوا. وكان عبد الله بن رواحة[٩] قادما في الطريق إلى المسجد، فما أن سمع صوت النبي حتى جلس في مكانه على الفور (الإصابة في تمييز الصحابة، حرف العين). ثم تحرك إلى المسجد في وضع الجلوس. فقال أحد الصغار: لماذا تفعل هذا؟ إنك تفعل شيئا عجيبا. إن الرسول لم يقصد هذا، وإنما قال اجلسوا للواقفين حول المجلس، و لم يقله للسائرين في الطريق. فقال عبد لله: لو خرجت روحي قبل وصولي إلى المسجد فماذا يكون جوابي بين يدي الله حين يسألني: ألم يأتك نداء رسولي؟ فلماذا لم تعمل به؟

إن عمله هذا يبدو في الظاهر مخالفا للحكمة، ولكن العشق له لونه الخاص. العشاق لا يبحثون عن الحِكم، وإنما هم مستعدون لما يقوله الحبيب.

فيجب أن نتذكر أن الحكمة تابعة للتعليم، والتعليم تابع للتزكية، والتزكية تابعة لآيات الله. الأصل هو ذات الله تعالى. ثم يأتي في المقام الثاني الوجود الذي هو مظهر لله تعالى، ثم تليه درجةً الذرائعُ التي تجعل الإنسان مظهرا لله تعالى، ثم تدفع الإنسان وترغبه في العمل. فهذا الترتيب الذي في الآية هو بحسب درجات هذه

[٩] ورد في التفسير اسم عبد الله بن مسعود، ولكن لم نعثر على رواية فيها اسمه.

الأمور، ولكن في الدعاء الإبراهيمي، لوحظ الترتيب الذي بحسبه يترقى الإنسان ويتقدم. فأولا تقدَّم له الدلائل. ثم يُخبر بالفرائض والواجبات عليه، ثم تُبين له الحكم لهذه الفرائض والواجبات، ثم يخبر أن الذين يعملون بهذه الأمور ينالون التزكية.

والفرق الثاني بين الدعاء الإبراهيمي وما ورد في هذه الآية أنه انتهى بقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) أما هذه الآية فتختتم بقوله تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون).. وذلك لأن إبراهيم كان دعا ربه متوسلا بصفتي (العزيز والحكيم)، فقال: يا رب، كل ما أسألك بناء على أفكاري، ولكني لا أدري ما هي حاجات ذلك الزمن، فأتوسل إليك أن تهب لهم ما يحتاجونه بناء على قدرتك وحكمتك. أما قوله تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) فبين الله فيه أن دعاء إبراهيم ربه بصفتي العزيز والحكيم قد تحقق واستجيب. فهذا النبي لا ينجز فقط ما دعا له إبراهيم من أعمال، بل يُنجزها بطريقة لم يَرْقَ إليها أي نبي. لأن حاجات ذلك العصر تفرض أن يكون تعليمه من الدرجة الرفيعة.

كما يشير قوله تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) أن تعليم هذا الرسول لا يقتصر على ما ورد في الكتب السابقة من أحكام حسنة، بل يزيد عليها ما لم يكن يعرفه العلم من قبل. وقد عبر القرآن عن ذلك في موضع آخر بكلمتي المحكمات والمتشابهات في قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (آل عمران: ٨).. أي بعض ما أنزل عليك من الكتاب آيات هن أساس هذا الكتاب، وبعضه آيات متشابهات وهي الأحكام التي تتشابه مع الأحكام السابقة الواردة في الكتب القديمة مثل حكم الصوم، فالصوم قد ورد في تعاليم الأوّلين، وكذلك الأمر بتقديم الأضحية أمر متشابه كما قال تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) (الحج: ٣٥). ففي القرآن من الأحكام ما يتشابه ويتماثل مع الأحكام التي وردت في الكتب القديمة، وكان هذا ضروريا. مثلا قال الأنبياء الأوائل: قولوا الحق والصدق، فهل

كان يتوقع من القرآن ألا يأمر بقول الحق بل الكذب؟ فكان حتما أن تكون بعض التعاليم في القرآن الكريم تشابه تعاليم الكتب السابقة، وهذه هي المتشابهات، ولكن هناك من الأحكام ما يتميز به الإسلام عن سائر الأديان، وهذه هي المحكمات. ولو كان تعليم موسى وعيسى (عليهما السلام)من المحكمات ما كانت هناك حاجة لنزول القرآن. فقوله تعالى (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) يشير إلى هذه الفضيلة القرآنية.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٣)

التفسير: يقول تعالى (فاذكروني أذكركم). والذكر أنواع وألوان. العاجز وقليل الحيلة إذا ذكر شيئا فإن ذكره تمنّ ورغبة فقط. فمثلا، هناك رجل فقير له قريب عزيز عليه في الغربة، فهو يذكره، ولكنه لا يستطيع أن يدعوه ليراه.. إما لقلّة ماله أو لبعض العوائق الأخرى، فذِكْرُه قريبا له في الغربة لا يعني إلا الرغبة والتمني للقائه. أو هناك طفل رضيع في سريره يذكر أمه فيبكي، فذكره لا يتعدى بكاءه ورغبته في أن تأتي أمة وتحتضنه.

ثم هناك شخص على شيء من المقدرة، وإذا ذَكَر هذا أحدا أو أمرا..بَذَلَ بعض الجهد للحصول على ما يذكره. كمثل طفل اشتد عُوده ويستطيع المشي. إذا تذكر أمّه وأراد لقاءها فإنه لا يكتفي بالتمني بل يحاول عمليا لقاءها ويمشي إليها.

ثم هناك ملك يذكر أحدا من رعاياه.. فإن ذِكره لا يقتصر على الرغبة فقط، بل ذِكره قوة فعالة تجذب الآخرين إليه، ويتحقق ذِكره عمليا.

إذن فذِكر الأدنى مَن هو أعلى منه يعني أنه يتمنى أن يدعوه هذا الأعلى ويستحضره.. وما هذا إلا توسل وتمنٍّ. وإذا ذكر الأعلى من هو أدنى منه فذِكره يعني أنه يريد إحضاره، لأن في ذِكره قوة. ومثال ذلك ما ورد في القرآن عن أهل الجنة (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم ما تَدَّعون) (فصلت:٣٢). فهذه الرغبة

والاشتهاء من جانب أهل الجنة تكشف عن القوة.. لأنهم بمجرد أن يشتهوا شيئا يهيئه الله لهم فورا.

وفي الدنيا أيضا إذا ذكر الملك أحدا فلا مناص له إلا أن يُهرَع إلى الملك على الفور تاركا كل مشاغله، لِعلمه أنه لو تأخر عنه لتعرّض للعقاب. ففي ذِكر الملك هذا قوة وجاذبية عظيمة، لأن من يدعوه ينجذب إليه فورا. فإذا كان ذِكر ملِكٍ يحمل معنى آخر فلا بد أن يكون لذِكر الله أحدا معنى آخر. فقوله تعالى (اذكروني) يعني عليكم أن ترغبوا في لقائي، وتبذلوا أقصى جهدكم للحصول على قربي، فإذا وصل ذِكركم إياي درجة الكمال (أذكركم).. سوف تنجذبون إلي وتأتوني، وتنفتح أمامكم أبواب قُربي، وأضمكم إلى زمرة المقربين إليَّ، وذلك لأنه ما دام ذِكر ملك عادي لأحد رعاياه لا يعني أنه يجلس ويردد اسمه، فلا يكون ذِكر الله تعالى أحدَ عباده مجرد ذِكر اسمه، لا بد أن يكون له معنى آخر. وفي اللغة العربية يقولون: أمير المؤمنين يذكُرك، ولا يعنون بذلك أنه جلس يذكر اسمه ويردده، وإنما يعنون أنه يريدك أن تحضر إليه.

ولنتذكر أن ذِكرَ العبد ربَّه يكون على ثلاثة أشكال: الأول –ذِكره ربه عند رؤية شيء حسن أو سيئ. فمثلا عندما يكون هناك دافع لارتكاب الإثم يقول: أستغفر الله.. وعندما تصيبه مصيبة يقول: إنا لله؛ وعندما يجد ما يسره يقول: الحمد لله.

والثاني –أن يذكر ربه عندما يسمع بما وقع لغيره، مثلا، إذا سمع عن مصيبة حلّت بأحدٍ دعا لهذا المصاب، وشكر الله تعالى أن عافاه من هذه المصائب.

والثالث – أن يتحدث عن الله تعالى، فيذكر في المجالس رحمته وكرمه عز وجل، ويردد ما يثيره المعترضون والأعداء من اعتراضات وحجج، ويبذل جهده لتوطيد عظمة الله تعالى، ويذكر نعم الله مرارا لُتنقَش صفات الله في قلب الإنسان، وثانيا لكيلا تنمحي هذه النقوش من قلبه بل تزداد، وثالثا لكيْ تتجلى هذه الصفات ونقوشها في كل عمل وقول له.

ثم من معاني الذكر العزة والصيت. فيعني قوله تعالى (أذكركم): لو أن المسلمين ذكروني وعملوا بأوامري فلسوف أحقق لهم العزة وحسن السمعة في الدنيا، وأُشرفهم بقرب لا يزول في الآخرة.

وقوله تعالى (وشكروا لي)..لا تطمئنوا إلى مجرد الذكر، بل من واجبكم ألا تنفكوا تشكرونني لما أنعمت به عليكم من نعم، بحيث يتجلى شكركم في أعمالكم وعباداتكم.

قوله تعالى (ولا تكفرون).. لا تكونوا ناكرين لما صنعناه معكم من جميل سابق. جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال ذات مرة (أُريت النار، فإذا أكثر أهلها النساءُ يكفرن. قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط) (البخاري، الإيمان).

وكفران النعمة يعني عدم استخدامها في محلها. مثلا – أعطانا الله الآذان لسماع كلامه، ولكن الناس يستخدمونها لسماع ما هو إثم وشر؛ وأعطانا العيون لنزداد بها علما ومعرفة، ولكن الإنسان يتطلع بها إلى ما عند فلان من مال، ويرى بها ما لا يجوز له رؤيته؛ وأعطانا اللسان لنتحدث به في الخير ونذكر به الله، ولكن الناس يستخدمونه للسيئات كالسباب والنميمة والغيبة والكذب..وهكذا يكفرون بنعم الله. فيقول الله تعالى: عليكم أن تقدّروا نِعَمي حق قدرها. وتنظروا إليها نظرة تعظيم، وتتعهدوا بحسن استخدامها ولن تنتهكوا حرمتها بسوء الاستخدام.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(١٥٤)

شرح الكلمات:

الصبر– أصل الصبر هو الكف والإمساك، ولكنه يُستخدم في معان أخرى منها: ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله (الأقرب). لكن إذا كانت الشكوى

دعاء لله تعالى كي يزيل ما حلَّ من مصيبة فهذا ليس منافيا للصبر؛ فقد ورد: (إذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره (الأقرب).

وقيل الصبر صفة سامية في الإنسان، ولها أسماء مختلفة. فهو في المحاربة شجاعة، وفي إمساك النفس عن الفضول –أي عن طلب ما يفضل عن قوام المعيشة –فقناعة وعفة نفس (الأقرب). ولما كان المعنى الأصلي للصبر هو الامتناع والكف، لذلك قال علماء اللغة: الصبر صبران: صبر على ما تهوى، وصبر على ما تكره (الأقرب).

الحقيقة أن الصبر على ثلاثة أنواع كما يبدو من القرآن والحديث:

أولا: اجتناب الجزع والفزع؛ قال تعالى (واصبر على ما أصابك)(لقمان: ١٨)

ثانيا: التمسك بالخير والتشبث به، قال تعالى (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (الإنسان: ٢٥)، فكل ما أمر الله به مما يسهل به قربُه –إذا تمسّك به الإنسان و لم يتزلزل عنه فهذا هو الصبر.

ثالثا: اجتناب السيئة؛ قال الله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) (الحجرات: ٦).. أي لو أنهم امتنعوا عن إثم استدعائك وانتظروا حتى تحضر إليهم بنفسك لكان خيرا لهم، ولكنهم لو أصلحوا أنفسهم الآن أيضا لوجدوا الله غفورا رحيما.

أما آيتنا الحالية فينطبق عليها المعاني الثلاثة لعدم وجود قرينة، والمراد أن لإنجاز أي عمل طريقين: أحدهما مادي والآخر روحاني، وإذا استخدم الإنسان الطريقين نجح وأفلح، فعليكم باستخدام الاثنين. والطريق المادي هو: أولا، اصبروا بهمة وثبات على كل ما تلاقونه في سبيل الله من صعاب وشدائد؛ وثانيا –عليكم باستخدام كل الوسائل والأسباب لإنجاز العمل؛ وتجنبوا الأمور التي تحول دون إنجاز المهمة. وأما الطريق الثاني وهو الروحاني فهو: ادعوا وانهمكوا في العبادة.

الصلاة – المعنى الأصلي للصلاة هو عبادة الله، ولذلك أُطلقت على الصلاة الإسلامية؛ الدعاء؛ الدين؛ الرحمة؛ الاستغفار؛ حسن الثناء؛ السلام على النبي (الأقرب).

ولمزيد من الشرح يُرجى الرجوع إلى الآية رقم ٤ من سورة البقرة، من الجزء الأول من هذا التفسير، في فوله تعالى (والذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون).

التفسير: يتبين من هذه الآية أيضا أن المراد من قوله تعالى (ومن حيث خرجت)هو الخروج للمواقع الحربية المتعلقة بفتح مكة.. لأن الصبر والصلاة يلجأ إليها الإنسان عند الشدائد، فعند ذكر الشدائد التي عانى منها المسلمون على يد اليهود أيضا قال الله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) (البقرة: ٤٦)، والآن عند ذكر مكة بيّن أنكم سوف تتعرضون للشدائد ولا شك ويُقتل أقاربكم، ولكن لا تَدَعوا الجبن والخَوَر يتسرب إليكم، بل عليكم بالهمة والثبات والجد لمواجهة هذه الشدائد وتقديم التضحيات، وعليكم بالاستعانة عليها بالصبر والصلاة.

في هذه الآية بين الله مسألة عظيمة الشأن..ذلك أنه تعالى يمنع المسلمين من البكاء والإحساس بالألم عند الشدائد، ولذلك يقول سوف تتعرضون للشدائد، وسوف تشعرون بوطأتها وألمها، ولكني أدلُّكم على علاجها: اصبروا وادعوا..ورد في الحديث أن طفلا لإحدى بنات النبي ﷺ أوشك على الموت (ففاضت عينا النبي ﷺ فقال له الصحابي سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده. ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء)(البخاري، كتاب المرضى). فلم يمنع من أحاسيس الألم، ولكنه منع أن ينهار الإنسان فيترك العمل جزعا وفزعا. ولذلك قال الله تعالى إن الشدائد آتية، والسيوف ستشهر، والأعناق ستضرب.. فاصبروا وتثبتوا وانهمكوا في عملكم بهمة وثبات. لا نقول لكم: إياكم وإحساس الألم والغم، فهذه عاطفة طبيعية لا يمكن كفّها، وإنما نقول: شاركوا في هذه التضحيات بهمة وثبات، ولا تتزعزع أقدامكم.

ولكنه نبّه أن هذه تدابير وأسباب مادية، وواجبكم الحقيقي أن تعتمدوا على الله، وتستعينوا بالدعوات إليه، وما لم تتوكلوا على الله كلية و لم تتعودوا على التوسل إليه لن تنالوا الفتح والنصر. انظروا إلى الطفل الصغير إذا خُوِّف أسرع إلى أمه على

الفور مهما كانت أمه ضعيفة وعديمة الحيلة.. ويعتقد في أحضانها أنه أصبح في مأمن. كذلك المؤمن يهاجمه عدو فإن ملجأه الوحيد هو وجود الله تعالى.

الصلاة شيء روحاني، وعلاقته بالله تعالى، والصبر شيء مادي وعلاقته بالتدابير الإنسانية. عند الصبر تظهر علاقة حبنا لله تعالى مجبرين، أما في صورة الصلاة فتظهر علاقة عشقنا بالله طائعين. إن المصائب والشدائد لا نخلقها بأنفسنا وإنما يجلبها علينا العدو، ونتحملها ولا نترك الله تعالى، ولكننا مجبرون على ذلك، أما الصلاة والدعاء فهي عبادة نقوم بها عن طواعية، لا إكراه عليها وإنما نصلي برغبتنا. إذن بالصبر نبدي محبتنا لله تعالى مجبرين، أمّا بالصلاة فنعبر عن حبنا وعشقنا لله طائعين. وعندما يجتمع الاثنان..الصلاة والصبر..يكتمل الحب، فتجري ينابيع فيض الله من الرحمة والبركة.

وعلى ضوء معاني الصبر المذكور أعلاه. فالآية تعني أولا: أيها المؤمنون. إذا حلت بكم المصائب فلا تحزنوا ولا تضيقوا بها ولا تشتكوا منها؛ وثانيا "أيها المؤمنون، حاولوا تجنب الأمور التي تحول بينكم وبين قُرب الله تعالى؛ وثالثا: أيها المؤمنون، لا تتكاسلوا عن العمل بكل ما تؤمرون به ليقربكم إلى الله، بل اعملوا به بهمة وثبات، فهذه الأمور الثلاثة تساعد على نيل المدراج العليا من الروحانية، فيجب أن تضعوها في اعتباركم دائما، ولو فعلتم ذلك لنجحتم في إنجاز ما أنتم بصدده، وتنالون هدفكم.

ونظرا إلى ما ذكر من معاني الصلاة.. فالآية تعني أولا: أيها المؤمنون، استعينوا بالله عن طريق الصلاة؛ ثانيا: أيها المؤمنون، استعينوا بالله بالدعاء والابتهال إليه تعالى؛ ثالثا: أيها المؤمنون، استعينوا بالله بالتمسك والثبات على دينه؛ رابعا: أيها المؤمنون، استعينوا بالله بالاستغفار من ذنوبكم؛ خامسا: أيها المؤمنون، استعينوا بالله بالصلاة والتسليم على رسوله. وكأن كل هذه طرق ينال بها الإنسان نصرة الله وعونه.

في سورة الفاتحة، أُمرنا أن نقول (إياك نعبد وإياك نستعين)، وفي هذه الآية دلنا على طريقة نحصل بها على نصرته وعونه. يقول:

١.لو تعرضتم للمصائب والمصاعب في سبيل دين الله، واضطررتم لتقديم التضحيات، فلا تخافوا ولا تقلقوا.

٢.واجتنبوا الأمور التي ينهاكم الله عنها.

٣.لا تتوقفوا عن تقديم التضحيات لأنها ضرورية للحصول على قرب الله تعالى..فداوِموا عليها وتثبّتوا

٤.وادعوا الله أن يقبل تضحياتكم ويجعل لها نتائج وثمرات جيدة، ويمنحكم الفتح والظفر.

٥.ارحموا الفقراء حتى يرحمكم الله ويرضى عنكم لما هيأتم من راحة لخلقه.

٦.اطلبوا المغفرة على تقصيراتكم.

٧.ادْعوا وصلّوا على الأنبياء لأنكم عن طريقهم وفِّقتم للوصول إلى الله

٨. تثبتوا على دين الله بهمة واستقامة.

٩.داوِموا على العبادة بكل همة ونشاط.

كل هذه الأمور بيّنها الله تعالى كي ينال الإنسان الفلاح والنجاح. فمن أراد أن ينصره الله فلا بد له من العمل بها. لا يكفي ولا يعني شيئا تَفَوُّهُ الإنسان: يا إلهي، يا رب انصرني ...بل لا بد للحصول على نصرة الله من العمل بهذه السبل. فالذين يدفعهم الخوف إلى اليأس، ثم يرجون الله تعالى أن يترل ملائكته من السماء لنصرهم لن يُنصروا ولن يفلحوا. والذين يتخذون أوامر الله وأحكامه ظِهْرِيّا ويُعرضون عنها، ثم يرجون الله تعالى أن يبعث ملائكته لمعونتهم لن ينالوا ذلك أبدا. والذين يترددون في تقديم التضحيات ويقصّرون في تأدية المسئوليات الملقاة عليهم من الله تعالى لن يفلحوا. والذين لا يدعون الله ولا يتضرعون إليه بالبكاء والخشوع ثم يتوقعون منه تأييدا معجزا لن يفلحوا. والذين لا يبدون غيرة في أمور الدين ولا يسهمون في سبيل رقيّه وازدهاره لن يفلحوا أمام الأعداء. والذين لا يشفقون على الفقراء والمساكين، ولا يمدون أيديهم لإزالة مشاكلهم لن يفلحوا ولن ينالوا تأييد الله عند المشاكل. والذين لا يصلّون على رسل الله تعالى ولا يدعون لهم، ولا يكِنّون في أنفسهم مشاعر الشكر تجاه صنائعهم لن يفلحوا في الحصول على معونة

الله تعالى. والذين لا يقفون أعمارهم لخدمة الدين والعبادة لن يفلحوا في نيل المدارج العالية من قرب الله. ثم إن الذين يقومون بكل هذه الأمور، ولكنهم لا يشعرون في أنفسهم أنهم لم يقوموا بأي إنجاز أو عمل يُذكر، وإنما يصيبهم الكِبْر لما قاموا به..فلن يفلحوا أيضا في نيل عون الله تعالى.

الناس يقولون بأفواههم (إياك نعبد وإياك نستعين)،ولكنهم لا يعرفون ماذا يتطلب منهم قولهم هذا. إنهم عندما يذهبون إلى مكتب البريد لإرسال حوالة مالية إلى أحد..يأخذون معهم الورقة الرسمية "الاستمارة " الخاصة بذلك، لأنهم يعرفون أن النقود لن تُرسَل ما لم تصحبها الاستمارة وما لم تُمْلأ بياناتها صحيحة. وإذا أرادوا إرسال رسالة وضعوا عليها الطابع البريدي بحسب القيمة المحددة. لِعِلْمِهِم أن الرسالة لن تصل إلى جهتها إلا بذلك. وعندما يريدون الالتحاق بمدرسة يملئون بيانات الاستمارة التي تصدرها الجهة التعليمية. وكذلك عند التقدم لامتحان في الجامعة.. إذا أخطأ الطالب في أحد البيانات اضطرب قلبه خشية رفض الطلب. ولكن فيما يتعلق بالله تعالى فلا يملئون استمارة ولا يوفون بأي شرط، ومع ذلك يقولون: يا رب، أرسِلْ لنا ملائكتك لنصرتنا. إنهم لا يعرفون أنه في الأمور الإلهية أيضا لا بد من ملأ استمارة، وما لم تُملأ الاستمارة مع التوقيع لن يحالفهم نصر الله وتأييده. تلك الاستمارة هي استمارة (الصبر والصلاة)..وما لم يوقعوا عليها فلا نصيب لهم من نصر الله وعونه.

وفي قوله تعالى (إن الله مع الصابرين)..اكتفى بذكر الصابرين و لم يذكر المصلين، ذلك لأن كلمة (الصابر)تعني المواظبة والمداومة على عمله، والصبر هنا لا يعني الجَلَد فقط بل يشمل الصلاة أيضا. ولا يعني قوله تعالى (إن الله مع الصابرين) أنه مع الذين يُبدون جلدا وتحمُّلا فحسب، وإنما يعني أن الله مع أولئك الذين يبدون مداومة وثباتا على الصبر والصلاة أيضا. لأن الدعاء المقبول إنما هو ما داوم عليه صاحبه. فالمعنى أنكم إذا تمسكتم بالصبر والصلاة بهمة ومداومة تفلحون.

هُنا نصح الله أولئك الذين يتحملون المشاق لفترة ثم يتعجلون ويقولون: لماذا لم يقبل الله دعاءنا. لقد تعبنا من الدعاء وسئمنا من النداء، فما الفائدة من هذا الدعاء

الذي لا يسمع؟ وبعضهم يقعون في العثار حتى إنهم يرفضون وجود الله سبحانه. يقول الله تعالى (إن الله مع الصابرين).. إنما ينال نصر الله من يداومون ويثبتون في تحمل المشاق، ويأخذون بأسباب الصبر والصلاة بهمة وثبات ودوام.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٥).

شرح الكلمات:

لا تقولوا لمن يُقتل-إذا جاءت اللام بعد القول فمعناها توجيه الكلام إلى أحد. يقولون: قال لِفلان..أي خاطبه قائلا. وكذلك إذا قيل: قال لِفلان..أي قال في شأنه. فالمعنى: لا تقولوا لهؤلاء مخاطبين إياهم: أنتم أموات. أولا تقولوا في شأن هؤلاء الشهداء إنهم أموات.

وهناك محذوف قبل أموات وأحياء، والتقدير: لا يقولوا لمن يقتل في سبيل الله أنهم أموات بل هم أحياء.

التفسير: في هذه الآية يقول الله عن الشهداء في سبيله إنهم أحياء. ذلك لأن العرب كانوا إذا ما قُتل أحد وأُخذ ثأره سموه حيّا، أما القتلى الذين لا يؤخذ ثأرهم فكانوا يسمونهم أمواتا. وكانت هذه الفكرة شائعة بينهم لدرجة أنهم زعموا أن القتيل الذي يؤخذ ثأره تتحول روحه إلى بومة تصرخ طوال الليل، فإذا أُخذ ثأره ارتاحت روحه وكفت عن الصياح ونال صاحبها النجاة. ومن هنا اعتقدوا أن أخذ ثأر القتيل يجعله حيّا، ومن لم يؤخذ ثأره ظل ميتا. قال الشاعر الجاهلي الحارث بن حِلِّزة في مُعلقته:

إن نَّبَشْتُم مَّا بين مِلْحَة فالصّـ ـاقب فيه الأمواتُ والأحياءُ

يخاطب الشاعر القبيلةَ المعارضة له ويقول: تحسبون أنفسكم سادة شرفاء.. وهذا غير صحيح. اذهبوا إلى هذا المكان بين ملحة والصاقب حيث دارت بيننا وبينكم المعارك.. تجدوا هناك قبورا للقتلى.. منهم الأموات ومنهم الأحياء.. يريد أن الأموات هم قتلاكم الذين لم تستطيعوا الثأر لهم منا، والأحياء هم قتلانا الذين ثأرنا

لهم وقتلنا منكم كثيرين مكان الواحد منا. وكان العرب حساسين في هذا الصدد حتى أنهم يعيرون أهل القتيل الذي لم يثأر له ويتهمونهم بعدم الغيرة والإباء.

فتعني الآية إذن: لا تقولوا لهؤلاء الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم أموات، بل هم جنود لله أحياء.. لأنه سبحانه سوف ينتقم لهم. وفعلا لو قُتل صحابي واحد لقُتل من المشركين في مكانه خمسة. ففي كل معركة كان قتلى الكفار أكثر من شهداء المسلمين، إلا في غزوة أُحُد حيث استشهد عدد أكبر من المسلمين، ولكن الله تعالى ثأر لهم من الكفار فيما بعد.

وهناك معنى آخر للآية..فمن مات وخَلَفَه من يتم عمله يقال عنه (لم يمت)، أما من لم يترك بعده من يكمل عمله فهو ميت. يحكى أن الملك الأموي عبد الملك زار مدرسة للزهري، وكان من طلابها الأصمعي النحوي الشهير، وامتحن الملك الأصمعيَّ بسؤال، فرد عليه بجواب معقول، فسُر الملك وقال للزهري: ما مات من خلف مثلك.

فمعنى الآية أيضا: لا يمكن أن يسمى هؤلاء الشهداء أمواتا لأن وراءهم من ينجز ويكمل العمل الذي قدموا أرواحهم من أجله، وإذا مات منهم واحد نهض ليأخذ مكانه اثنان. فلا تقولوا عنهم إنهم أموات، لأن الله تعالى خلق لهم من ينوبون عنهم بأحسن طريق، وهم أكثر عددا من الراحلين. الميت من يرحل وليس له من يحل محله.

الحق أنه لا تموت أمة يأخذ أفرادها مكان شهدائها. الأمة التي تصنع من يحل محل الأولين، مهما كانت صغيرة، فلن تهزم في مجال الصراع. تحسبون المسلمين قد ماتوا؟ كلا، لم يموتوا، بل هم أحياء. إذا مات منهم واحد، أخذ غيره مكانه. إذا مات عدد من المسلمين في غزوة بدر حل محلهم آخرون أكثر عددا في غزوة أُحُد. وإذا تضرر ومات بعض المسلمين في غزوة أحُد قام الكثيرون ليحلوا محلهم في غزوة الخندق. ويوم فتح مكة كان عدد الجنود المسلمين أكبر كثيرا من عددهم يوم الخندق. وإذا تأذّى المسلمون شيئا ما يوم فتح مكة فإن عدد المسلمين يوم تبوك كان أكبر كثيرا. ففي كل موقعة كان عدد المسلمين يتزايد لتقديم تضحية أعظم

ممن كانوا قبلهم، والأمة التي تسمو إلى هذا المقام الرفيع من التضحية لا يمكن أن يقضي عليها أحد. ومثل هذه الأمة هي تلك التي يقيمها الله تعالى.

والمعنى المجازي الثالث هو أن هؤلاء أحرار من أي نوع من الحزن والألم. فمن كان عاقبته أن قُتل في سبيل الله تعالى...كيف يمكن أن يجد حزنا وألمًا في الآخرة؟ ما دام هؤلاء مسرورين في الآخرة فقد نالوا حياة أفضل مما تركوها، فلا يمكن أن تسَمُّوهم أمواتا، لأن الموت يدل على حالة من الغم والألم. الثابت من القرآن أن الحياة بعد الموت سوف ينالها المؤمن والكافر على السواء.. فالمراد من قول الله تعالى: لا تقولوا عنهم أمواتا أن وصف أحد بالموت يحمل معنى الألم، ولكن هؤلاء في راحة وينالون من الله نعَمًا ...فكيف يمكن أن يسَمّوْا أمواتا؟

والمعنى الرابع هو أن الشهيد ينال فورا بعد الموت الحياة الكاملة، بينما يقضي الآخرون فترة ما بين الموت والحياة الكاملة. فقد ورد في بعض الأحاديث أن الشهيد يحيا بعد ثلاثة أيام، وينال ذلك الكمال الذي يناله الآخرون بعد فترة طويلة. يقول: إن هؤلاء الشهداء ينتقلون بعد مقتلهم إلى حياة روحية كاملة.. وإن كان الجميع شركاء في الحياة، بل إن أبا جهل سينال الحياة بعد الموت، إذ كيف يدخل جهنم إذا لم يحصل على الحياة؟ فالمؤمن والكافر كلاهما ينال الحياة بعد الموت ولكن الشهيد –الذي يضحي بحياته في سبيل الله تعالى –فإنه يُعطى الحياة الروحية الكاملة بعد موته مباشرة.

ثم إن هذه الآية تعتبر الشهيد حيّا أيضا لأن المؤمن الصادق لا يخاف من الموت في سبيل الله تعالى إلا خشية الحرمان من الاستمرار في أداء الأعمال الصالحة من عبادة ودعوة إلى الله وخدمة لخلق الله، مثلا، إذا كان هناك شخص مات في الأربعين، لو أنه مكث إلى الستين لأنجز كثيرا من الخيرات. هذه هي الفكرة الوحيدة التي يمكن أن تمنع الإنسان المؤمن من الاستعداد للموت ... وإلا إذا كان المؤمن حقا يقدّم الآخرة على الدنيا فلا يمكن أن تمنعه أي فكرة دنيوية من هذا السبيل. وقد أقر الله معقولية هذا الخاطر وردّ عليه قائلا: (لا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء)..أي أن أعمال الشهيد لا تنقطع، وإنما هو حيّ وأعماله في الخير مستمرة،

بل وتزداد يوما بعد يوم. إنه ضحّى بحياته في سبيل الله لذلك لم يُـرد الله تعـالى انقطاع أعماله. فما من صلاة تصلونها وتثابون عليها إلا يثاب عليها الشهيد، وما من رمضان تصومونه وتثابون عليه إلا وينال الشهيد ثوابه، وما من حج تحجونـه بشق الأنفس وتفوزون بثوابه إلا ونال ثوابه. هؤلاء الشهداء ينالون نفس البركات التي تنالونها، ويزدادون قربًا إلى الله تعالى كما تتقربون.

لقد بيّن الله في هذه الآية فلسفة الحياة والممات بأسلوب رائع لطيف. وذكر أن من ينال درجة الشهادة ينال حياة أبدية. كم كان جنود يزيد مسرورين عندما قتلـوا الإمام الحسين (رضي الله عنه)، وكم تفاخروا بأنهم قضوا على خصمهم، ولكـن هل انتهت القضية بهذا الحادث؟ الدنيا ترى أن الإمام الحسين حي إلى اليوم، ولكن يزيد ميت عندهم في ذلك الوقت واليوم أيضا. كذلك كل من يضحي بحياتـه في سبيل الله تعالى لا يضيع دمه، بل يأتي الله مكانه بقوم فيدخلهم في جماعته.. لذلك يقول الله تعالى: لا تقولوا لمن يقتل في سبيلي أموات..بل إنهم أحياء. كيف يقـال عن الشهيد إنه ميت؟ فالمقربون لدى الله والشهداء في سبيله لا يموتون أبدا. لقـد علّق اليهود المسيح على الصليب، ثم أُنزل من على الصليب حيًّا، وإن ظن أنه مات على الصليب –كما ذكرهم القرآن –(النساء: ١٥٨).. فماذا كانت عاقبة أولئك الذين حاولوا قتله على الصليب؟ فرغم مرور تسعة عشر قرنا على هـذه المحاولـة الفاشلة ... لا يزال اليهود معلّقين على نوع من الصليب.. مع أن الناس ينـسون أعداءهم بعد خمسين أو ستين سنة، بل نقابل عشرات من الناس لا يعرفون أسمـاء جدهم، وربما لا يعرف اسم أجداده من القرن السابق إلا واحد في المليـون مـن الناس، ولكن رغم أنه انقضى على محاولة قتل عيسى ابن مريم أكثر من تسعة عشر قرنا إلا أنه لا يزال اليهود يعلّقون ويُعدَمون إلى اليوم.

وكذلك حاول كبراء مكة قتل محمد ﷺ، ولكن هل تجدون أحدا يـذكر اسمهـم وينتسب إليهم؟ في غزوة أحُد نادى أبو سفيان: هل فيكم محمد؟ ولما لم يتلقَّ جوابا نادى: لقد قتلنا محمدا. ثم نادى هل فيكم أبو بكر؟ وعندما لم يتلق ردّا قال: قـد قتلنا أبا بكر. ثم سأل هل فيكم عمر؟ (البخاري، كتاب المغازي). اذهبوا اليوم إلى

أركان العالم واسألوا: هل فيكم أبو جهل؟ لن تجدوا أي صوت يقول: نعم فينا أبو جهل. ولكن لو ناديتم: هل فيكم محمد؟ فسوف تسمعون مئات الملايين من الأصوات تهتف وتقول: نعم فينا محمد؛ لأننا نتشرف بالانتساب إليه وتمثيله. لا يزال نسل أبي جهل موجودين في العالم، ولكن لن يتجاسر أحد منهم أن ينتسب إليه. هناك نسل لعُتبة وشيْبة في الدنيا إلى اليوم، ولكن هل هناك أحد يقول إنه من أولادهما؟ إن الذين يُقتلون في سبيل الله لا يموتون أبدا، بل إنهم أحياء إلى يوم القيامة، وإن ذريتهم ليدْعون الله لهم بذكر أسمائهم، ويتذكرون محاسنهم، ويحاولون تتبع خطواتهم.

توضح هذه الآية صحة موقفي فيما يتعلق باختلافي مع المفسرين الآخرين بصدد تحويل القبلة، وتبيَّن صوابُ قولي إن الآية (ومن حيث خرجت...) تعني: عليك أن تنظر دائما إلى هدف فتح مكة، وليس أن تتجه إلى القبلة في الصلاة. وإلا فلا علاقة لهذه الآية مع سائر الآيات، ولا صلة بين ذِكر الشهداء والقبلة. يكون ذِكر الشهداء مع الحرب والقتال، أما ربط الشهداء مع قضية تحويل القبلة فلا يبدو مناسبا ولا حقًّا. يقول الله هنا: لو اضطررتم لدخول الحرب من أجل فتح مكة فلا تخافوا.. لأن في هذا بقاءكم وحياتكم. والذين يُقتلون في سبيل الله لا تسموهم أمواتا، بل هم أحياء. الذين –لجهلهم يسمونهم أمواتا –ينقصهم الإحساس بأهمية هذا الأمر.

ويتضمن هذا أيضا الجواب على من يقول: ما الحاجة إلى الحروب وإزهاق الأنفس؟ يقول الله: إنكم لم تُمنحوا تلك البصيرة التي نالها المؤمنون الذين يُستشهدون في سبيل الله، إنكم لا تدرون أن في موتهم الأساس لانتصار الإسلام، ولكنهم يدركون جيدا أن في موتهم منفعة عظيمة للإسلام. جاء في الحديث "(عن جابر بن عبد الله يقول "لَقِيَني رسولُ الله ﷺ فقال لي: مالي أراك منكسرا؟ قلت: يا رسولَ الله، استُشهد أبي وترك عيالا وديْنا. قال: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال: بلى يا رسول الله. قال: ما كلَّم الله أحدا قطُّ إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلَّمه كفاحا [أي مشافهة]،وقال يا عبدي، تَمَنَّ عليَّ أُعْطِك. فقال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية. قال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون) (الترمذي،

أبواب التفسير). وهذا يؤكد أن صادقي الإيمان يعرفون أن في موتهم إحياء للأمة، وأنه ينتظرهم ثواب كبير في الآخرة، فلا يخافون الموت. هؤلاء يبقون أحياء رغم تضحية أرواحهم، ولكن الذين لا يقدمون حياتهم يظلون أمواتا رغم حياتهم.

تنبأ سيدنا المهدي والمسيح الموعود عن موت القسيس عبد الله آتم، وعندما انقضى الموعد و لم يمت آتم صاح المتشبثون بالظواهر: إن نبأ المرزا لم يتحقق وتبين كذبه. واستهزأ بعض الناس بهذا النبأ في مجلس حاكم ولاية هاولبور بالهند، وقالوا أن النبأ ثبت كذبه. وها هو آتم حي يُرزق إلى اليوم. وكان ولي الله الخواجة غلام فريد من بلدة تشاتشران في المجلس، وكان الحاكم مريدا له. وأثناء الحديث قال الحاكم: نعم، لم يتحقق نبأ المرزا. فثار الخواجة غلام فريد بكل جلال: من يقول إن آتم حي؟إنني أرى جثته*. فسكت الحاكم (إشارات فريدي: ج٣صفحة١٥)[١٠].

فبعض الناس يبدون أحياء، ولكنهم أموات. وبعضهم يبدون أمواتا في الظاهر ولكنهم في الحقيقة أحياء. فالذين يضحون في سبيل الله بأنفسهم إنهم أحياء في عيون أهل البصيرة الروحانية. يُحكى أن وليّا من أولياء الله كان يقيم في المقابر فسئل: لماذا تركت الأحياء وتعيش في المقابر بين الأموات؟ فقال: إنني أرى الأموات في المدينة، وأرى هؤلاء أحياء (تذكرة الأولياء للشيخ فريد الدين العطار، ذِكر إبراهيم الأدهم). فليس من السهل معرفة الأحياء والأموات الروحانيين، ولكن الله تعالى ذكر علامة ظاهرية تسهل إلى حد كبير معرفة هؤلاء وهؤلاء.

---

[١٠] القسيس آتم كان خطيبا في جامع آغرا بالهند ثم تنصر وجعلوه قسيسا. وكان يتطاول على سيدنا محمد ﷺ بوقاحة حتى سمّاه كذابا والعياذ بالله، فأنذره سيدنا المهدي بناء على إلهام أن الله سيهلكه خلال مدة عيّنها له. فأرعبه الإنذار وتوقف عن شتائمه، فنجا من العقاب، فأثار المعارضون ضجة أن النبأ لم يتحقق.. فقال الإمام المهدي إن الرجل أقلع عما كان يفعل، فنجا من عقاب الله، واسألوه يخبركم. ولكن آتم لزم الصمت، فقال الإمام المهدي إن سكوته إخفاء للحق فلا بد أن يهلكه الله، فأهلكه الله خلال الموعد المضروب. ولمزيد من التفاصيل راجع [نبوءات لسيدنا المهدي –دراسة تحليلية، نعيم عثمان ميمُن]

قوله تعالى (ولكن لا تشعرون). الشعور هو العلم الذي ينبع عن داخل الإنسان. مثلا لو سمع أحد شيئا من غيره وتوصّل منه إلى نتيجة.. فهذه النتيجة لا تسمى شعورا، ولا يقول: شعرتُ، بل يقول: علمتُ. ولكن إذا توصل إلى تلك النتيجة بتفكير من داخله بدون إخبار من أحد عندئذ يقول شعرتُ. وحينما يبلغ الطفل سن البلوغ يقولون: لقد وصل إلى "سن الشعور" مع أنه يحصل على بعض المعلومات من قبل أيضا. وكذلك يسمّى الشَّعر شَعرًا لأنه ينبت من الداخل. ويسمى اللباس الملاصق للبدن شِعارا لأنه داخلي. وسمي الشِّعر شِعرا لأن موضوعه يعبر عن الأحاسيس الداخلية للإنسان، وبقراءته يشعر الإنسان أن هذا هو في ذهنه أيضا. وإلى ذلك يقول الشاعر غالب ما معناه:

دیکھنا تقریر کی لذت کہ جو اس نے کہا

میں نے یہ جانا کہ گویا یہ بھی میرے دل میں ہے

انظر إلى لذة خطابه..فقد ظننت أن هذا أيضا في قلبي.. يعني أنه يشعر كأن ما يقول في قلبه.

يقول الله في هذه الآية أن كون الشهداء يحصلون على حياة سامية، أو أنه إذا مات أحدهم قام مكانه خمسون أو مائة، أو أنهم أحرار من كل حزن وخوف، أو أن دماءهم لن تضيع هباء..كل هذه الأمور تتعلق بشعور الإنسان. فإذا كان المرء معتادا على التدبر بفطرة سليمة لأدراك أنه لا ينال شيئا في هذه الدنيا إلا بتضحية شيء. فالأمُّ إذا لم تستعد لتضحية نفسها فلن تنال طفلها، وحبة القمح إذا لم تُضَيَّع نفسها وتدفن تحت التراب لا يمكن أن تتضاعف إلى سبعمائة حبة. كذلك لا يمكن أن تصبح أمة حية ما لم يعتبر أبناؤها أرواحهم رخيصة، ويستعدوا للتضحية بها في أي وقت، ولن يُكتب البقاء لأمة ما لم يكِنّ أبناؤها احتراما وإجلالا لشهدائها. هذا صوت الفطرة يُسمَع بآذان الشعور، ولكن الذين حُرموا الشعور فإنهم يعترضون على كل أمر، وكلما يطالَبون بتضحية من مال أو نفس تتزعزع أقدامهم، ويعتبرون

من يتقدمون ويُلقون أنفسهم في نار التضحيات جهالا. ينصح الله مثل هؤلاء: استخدموا شعوركم، ولا تنتهكوا حرمة الشهداء باعتبارهم أمواتا. إنهم ليسوا أمواتا، بل هم الأحياء في الحقيقة، لأن التاريخ سوف يحيي اسمهم. والأجيال القادمة سوف تتبع خُطاهم وتذكر إنجازاتهم، وسوف تدعو لهم الله دائما بالمغفرة ورفع الدرجات. تحسبون أن الحي من في جسده حياة، ولكن الحي حقا من يُحيي قومَه بموته. إذا كنتم ترون الشهداء أمواتا فشعوركم عليل، فاهتموا بعلاجه، وحاوِلوا فهم فلسفة الموت والحياة.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِن الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٦)

شرح الكلمات:

لنَبْلُوَنَّكم –البلاء هو إظهار خير أو شر، ويكون ذلك لثلاثة أغراض:

١.أن يزداد المبتلِي علما، مثلما يفعل الأستاذ مع تلميذه فيمتحنه ليعرف مقدار تحصيله وحفظه.

٢.ليزداد المبتلي علما ويعرف ما هو حاله، لأن الناس عامة لا يعرفون ما فيهم من صلاحية أو نقص..كما قال الله عن المنافقين (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)(البقرة: ١٠).

٣. ليعرف الآخرون حالة المبتلي ...مثلما حدث في قصة آدم والملائكة؛ فقد سأل الله آدم ليعرف الملائكة الصلاحياتِ الكامنة في آدم؛ وليس ليعرف الله شيئا لأنه هو العليم الخبير. فعندما تُستخدم هذه الكلمة في حق الله تعالى تكون بالمعنيين الأخيرين، فإذا لم يبتل الإنسان لن يزداد إيمانا ولن يعرف مستواه في الإيمان. [لمزيد من الشرح راجع تفسير قوله تعالى (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)(البقرة: ٥٠)].

الثمرات–الفواكه ونتائج الجهود(الأقرب).

بشِّر-البشارة هي الخبر يؤثر في بَشَرة الإنسان تغيرا، وهذا يكون للحزن أيضا لكن غلب استعماله فيما يفرح (الأقرب).

التفسير: يذكر الله هنا خمسة أنواع من الابتلاءات والاختبارات، ويؤكد أنكم لن تحظوا بقرب الله ما لم تمرُّوا بها بنجاح. أولها – أنكم سوف تتعرضون لخطر هجوم الأعداء. سوف تقف كل الأمم في وجهكم وتهاجمكم، وستَغضب عليكم الحكومات، وتسعى لمحوكم. هذه أمور يخاف منها الجبناء، وتنهار العزائم عند كثير من الناس ويفقدون حواسهم. يقولون: لقد تحالف القوم والحكومة علينا، وأصدروا قرارات ضدنا، ولا ندري ماذا سيكون مصيرنا.

وثانيا- عندما يتقدم المؤمنون في هذا الابتلاء الأول يمتحنهم الله بالجوع، ليتبين ثبات قدمهم. والمراد من ابتلاء الجوع أن جماعة المؤمنين عندما تجتمع حول المأمور الإلهي يقاطعهم الناس، ويطردونهم من الوظائف، ولا يتعاملون معهم بيعا .وشراء. كانوا من قبل يكتفون بالتهديد ليخاف المؤمنون من الضرر، ولكنهم في الخطوة التالية يفرضون عليهم الجوع والإفلاس عمليا..وذلك مثلما حدث مع رسول الله ﷺ والمؤمنين عندما حوصروا في شِعب أبي طالب، وكانت قريش لا تسمح بوصول أي نوع من الطعام والشراب إليهم، ولا يتعاملون معهم أبدا. واستمرت هذه المقاطعة لمدة طويلة من الزمن (السيرة النبوية لابن هشام، خبر الصحيفة).

وثالثا –يقول الله تعالى إن هذه السلسلة من المصاعب والمتاعب لن تتوقف عند هذا الحد، بل سوف يستبيحون أموالكم. فكأنهم بعد امتناعهم عن البيع والشراء مع المؤمنين.. يخطون خطوة أبعد، فيسلبون المؤمنين ما ادخروه من مال وأسباب.

ورابعا-عندما يجدون أن هذه الخطوة لا تحقق أيضا غرضهم، يعتدون على أرواح المؤمنين. ولكن هؤلاء لا يترددون في تقديم أنفسهم في سبيل الله تعالى.

وخامسا-فعندئذ يهاجمون أولادهم. لقد وجدنا أن بعض الخبثاء يحضرون اجتماعنا السنوي لاختطاف أطفال الأحمديين إيذاء لهم بهذا السبيل.

ومما يدخل في نقص الثمرات أيضا أنهم يحاولون عرقلة جهود المؤمنين ليحرموهم منافع عديدة.

ولنعلَمْ أن الابتلاء يأتي على ضعفاء الإيمان ليعرفوا حالتهم الإيمانية. أما أقوياء الإيمان فإنهم يمرون بالابتلاء ليعرف الآخرون مدى قوة أيمانهم بأنهم لا تزِلُّ قدمهم بعد ثبوتها. فالناس عموما يظنون أن لهم قدما ثابتة في الإيمان، ولكن عند الابتلاء يظهر ضعفهم، فيطَّلعون على نواحي النقص فيهم، ويسعون لعلاجها، وهكذا يصلون إلى الكمال شيئا فشيئا.

يقول الله تعالى: سوف نفرض عليكم ابتلاءات لتنكشف لكم أحوالكم الباطنة، وهي من خمسة أنواع: الخوف، وهو ابتلاء خارجي. والجوع، وهو أذى داخلي. وكأن البعض يُختبرون بأذى خارجي، والبعض يُبتلون بأذى باطني. ذلك لأن هناك من هم مستعدون للقتال، ولكنهم لا يتحملون الجوع. فالجند من الجيش يقاتلون، ولكنهم يتأذون من الجوع، ولذلك يُزودون بشيء من الطعام الجاف كالحمص والتمر وغيرهما ليسد رمقهم. ولكن المؤمن ليس كذلك، فهو مستعد لاحتمال الجوع في سبيل الله كما حصل في زمن الرسول ﷺ. بعث الرسول ذات مرة بعض الصحابة إلى الخارج، ولم يسألوا من أين نأكل. واقتاتوا على أوراق الأشجار والنبات. وفي مرات أخرى عاشوا على التمر (مسلم والنسائي، الصيد). فيقول الله تعالى: سوف نرى نصيبَكم من الشجاعة والاحتمال..هل ستواجهون العدو بلا خوف، وتتحملون الجوع بلا وهن أم لا؟

ثم هناك من القوم من يتحملون الخوف والجوع.. ولكنهم لا يتحملون الخطر على أموالهم. ومن الناس من يتحملون خطر ضياع الأموال، ولكنهم لا يصمدون أمام الخطر على حياتهم. فيقول الله تعالى إنه لا بد لكم من احتمال الخسائر في الأموال، وفي الأنفس، وأحيانا في ثمرة جهودكم حيث لا تكون حسب آمالكم. ومثال ذلك ما وقع للمسلمين يوم أحُد، فقد قاتلوا الكفار واستُشهد منهم الكثيرون، ولكنهم لم ينالوا ثمرة هذا. ومن نقص الثمرات ما يلحق بالتجارة والصناعة والحِرف من خسائر بسبب الحرب، لأن مثل هذه الخسائر نتيجة حتمية للحروب.

(وبشر الصابرين) الذين يتحملون هذه الاختبارات ويثبتون فيها بقوة على أرض الإيمان..فلا خوف عليهم. إنهم يقولون: لِيفعلِ الناسُ ما يشاءون: فليخوِّفونا أو

يقاتلونا أو يقاطعونا أو يهجرونا.. سوف نستمر في تقديم التضحيات في سبيل الله. وإذا نهب العدو أموالهم، أو اعتدى على أرواحهم وسعى لقتلهم.. يقولون: لا ضيْر، انهبوا واقتلوا. وإذا أراد العدو القضاء على أولادهم وفلذات أكبادهم يقولون: لا نبالي. إنهم صامدون منذ البداية إلى النهاية، مستعدون للتصدي لكل هجمة من العدو بصبر لا ينفذ، ولا يتوقفون عن قول: افعلوا ما شئتم.. فلن تستطيعوا أبدا تحويلنا عن جادة الصدق. فإذا ما ثبتوا في كل هذه الاختبارات الخمسة ولا يعرضون عن موقفهم.. يبشرهم الله أن طوبى لكم، لقد ظهرت قوة إيمانكم ونجحتم في الامتحان.. فاستعدوا الآن لدخول الصف التالي، ونيل الدرجات التالية.

ولا يعني الصبر ألا يهتم الإنسان ولا يغتم، وإنما الصبر ألا يصل به الغم إلى فقدان حواسه وبطلان قوة العقل والعمل فيه. ما أروع وما أسمى هذا التعليم الذي يوافق الفطرة الإنسانية. إن الإسلام لم يمنع من الهَمّ والغم لأنه أمر فطري؛ ولكنه لم يسمح بالجزع والفزع وترك العمل..لأن هذا يدل على الجبن وضعف الهمّة.

ومن هذه الآية أيضا يتبين أن قوله تعالى (ومِن حيث خرجْتَ فوَلّ وجهك شطر المسجد الحرام)لا علاقة له بالاتجاه إلى المسجد الحرام وقت الصلاة.. وإنما هو أمرٌ بوَضْعِ فتح مكة نصب الأعين دائما.. وإلا فما العلاقة بين توجُّه المصلين نحو القبلة وبين القتل والوقوع في الاختبارات على مختلف أنواعها؟ إن هذا ليؤكد أن تلك الآية تتحدث عن فتح مكة. بقوله(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع...)بيّن أن هذه المهمة لن تتم بسهولة، بل لا بد أن تمروا بأشد المصاعب؛ ولكنها سوف تكون خيرا لكم لأنها سوف تظهر قوة إيمانكم.

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٧)

شرح الكلمات:

مصيبة–المصيبة كل مكروه يحل بالإنسان لا يفلت منه.

التفسير: تعني هذه الآية أن المؤمن إذا أصابه الأذى فإنه لا يلجأ إلى الجزع والفزع، وإنما يقول بكل يقين وإيمان إنه لله وإنه راجع إليه. وهذا هو النموذج الذي يتوقعه الله من عباده المؤمنين. يريد ألا يجزعوا عند المصيبة، وإنما يتوكلون على الله، ويقولون بكل صدق واضعين في اعتبارهم أن الله يراهم ويسمعهم..(إنا لله وإنا إليه راجعون). وهذه تبدو في الظاهر كلمات وجيزة، ولكنها تتضمن معاني واسعة للغاية.

هذه الكلمات جملتان: الأولى: إنا لله، والثانية: وإنا إليه راجعون. فالجملة الأولى تبين أن المالك لشيء لا يدمره بيده، بل يسعى للحفاظ عليه. من يدمر ممتلكاته بيده بالغ الحماقة. فالعبد إذا صار حقا لله تعالى، واعتبر الله مالكا حقيقيا له..لا يمكن أن يتوهم أن ما استرده الله منه من مال أو متاع، أو ما حل به من مصيبة..كان لتدميره وإهلاكه. المؤمن الذي يستيقين أنه لله، وأنه في حضن الله كالطفل في حضن أمه.. أنّى له أن يتصور أنه يدمَّر ويُهلك وأن مصائبه لن تزول؟ الواجب على الحامي أن يحمي صاحبه من الأذى والخسارة، فكيف بالله تعالى وهو أعظم الحُماة والحافظين.. ألا يحمي عبده المؤمن من التبار والدمار؟ إن الله عندما يسترد شيئا من عبده فلا يعني ذلك أنه يريد تدمير ما استرده، بل إنه تعالى يختار لما استرده مكانا أفضل. ومثال ذلك ما يفعله النسوة في البيت عند عملهن في تنظيفه.. فإنهن يرفعن بعض الأشياء من أماكنها حفاظا عليها. أو مثال الفلاح الذي يلقي بالبذر في أرض الحقل، فيبدو للمشاهد أنه يضيع البذر، ولكن الفلاح لا يبكي على بذره لأنه يعرف أن ما فعله ليس إهلاكا للبذر وإنما هو ازدهار له، إنه سوف يرى البذر المفقود في الظاهر قد أعيد إليه زروعا مخضرة تميل وتهتز. كذلك العبد يستيقين أنه مهما يفعل الله معه فإنه يفعله لخيره..فلا يصيبه الجزع والفزع وقلة الصبر.

إذا أراد الإنسان تشييد بناء جديد جميل فإنه يهدم البناء القديم، ولا يبكي على ذلك بل يُسَرّ ويفرح. وإذا قصّ الخيّاط قماشا فلا مبرر للقماش –على فرض أن للقماش قلبا وعينا –أن يحزن ويبكي لأنه يعرف أنه سوف يجعله بذلك أحسن مظهرا وأعلى قيمة. كذلك الحال مع الإنسان.. لو استيقين أن الله تعالى هو مالكه، وأن

كل تغيير يحدثه به سيكون لخيره.. فلن يجزع ولن يفزع. نعم، إن التعبير عن إظهار الهَمّ والغم لا يتنافى مع الصبر. عندما تخرج الفتاة من بيتها إلى بيت زوجها يبكي أبوها.. ولا يسمى هذا البكاء جزعا أو فزعا، لأن الهَمَّ والغم إحساس طبعي، يتولد في كل إنسان عند المصيبة، وعلامته الثقل على القلب والدموع من العين. أما الجزع والفزع فهو بمثابة الشكوى من الله تعالى.. وكأن صاحبه يقول: لقد أهلكتني ودمرتني، وهذا ما يتنافى مع إيمان المؤمن وتوكله على الله تعالى. فقوله (إنا لله) بيّن أنه عند نزول المصيبة يظن الكافر أنه قد هلك، ولكن المؤمن برى أن الله تعالى قد أخفى له في هذا الابتلاء خيرا وبركة.

ثانيا-يعني أيضا قوله (إنا لله) أن المؤمن عندما يصاب بأذى يقول على الفور: إن علاقتي بهذا الشيء الذي فقدته كانت علاقة مؤقتة، وإنما علاقتي الدائمة بالله تعالى.. ولأجله -سبحانه-كنتُ على صلة بهذا الشيء، فإذا أراد الله لحكمةٍ ما أن تنقطع صلتي بهذا الشيء فما وجه الاعتراض على هذا؟ ونجد مثالا لذلك في حياة سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام. تُوفي أصغر أخوتنا -مبارك أحمد-في حياته. ولما كان أصغر الأولاد أحبهم إلى الآباء..لذلك كان سيدنا المهدي يحبه كثيرا، وكان يخصه بالحب أيضا لأنه كان يعاني من المرض عادة. كنتُ في الثامنة عشرة عند وفاته. وأشرف على علاجه في مرضه الأخير عدد من الأطباء منهم سيدنا نور الدين الخليفة الأول لسيدنا المهدي، والطبيب خليفة رشيد الدين، والطبيب سيد عبد الستار شاه. وفي صباح اليوم الذي توفي فيه رجع سيدنا المهدي من صلاة الفجر إلى البيت يصحبه هؤلاء الأطباء.. وكان أخي في ضعف شديد وإن بدا وجهه في حالة طيبة. وفحصه الأطباء وقالوا إنه في تحسن واطمأنوا.. ولكن سيدنا نور الدين كان أكثر خبرة لذلك أدرك أن الولد في حالة خطيرة. ففزع وأخذ يفحص نبضه فوجده ضعيفا، فالنبض يضعف عندما يقترب الإنسان من الموت. فوضع يده تحت إبط الطفل فلم يجد نبضا. فقلق والتمس من سيدنا المهدي أن يسرع بإحضار المسك. ولما كان يحب سيدَنا المهدي أشد الحب، ويعلم أنه يحب ابنه حبًّا جمًّا، وأحس بخطورة حاله.. اشتد جزعه، ولم يستطع أن يتمالك

نفسه فجلس، وقال: يا سيدي، أسرِع بإحضار المسك! ففهم سيدنا المهدي من صوته وطريقته أن حالة الولد ليست على ما يرام. فعاد دون إحضار المسك وقال: هل مات الطفل؟ فقال الخليفة الأول: نعم. فقال سيدنا المهدي على الفور: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ولم يُصبه أي فزع أو جزع، بل جلس يكتب الرسائل إلى أبناء الجماعة أن الابتلاءات تأتي على المؤمنين... فيجب على المؤمن ألا يفزع منها، بل يكون قوي الإيمان. وأضاف: لقد أخبرني الله بوفاة مبارك أحمد قبل ذلك.. وأخبرني أنه سيموت صغير السن، فبوفاته تحقق نبأ الله (سيرة المهدي لمرزا بشير أحمد، رواية رقم ١٥٤). ثم كتب على شاهد قبره أبيات منها.

بلانے والا ھے سب سے پیارا اسی پہ اے دل تو جاں فدا کر

أي إن الذي دعاه أحَبُّ إلينا.. فعليك يا قَلبِ أن تفدي به هو. وهذا البيت إنما هو في الحقيقة ترجمة لقوله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون).

فالمؤمن إذا أصيب بخسارة فإنه يقول: إن علاقتي الحقيقة هي بالله تعالى، فإذا رأى الله أن يدعوا إليه حبيبا من أحبائي فلماذا أشكو من ذلك؟ وكيف أشكو؟ ما دعاه الله إليه كان مِلكا له، وهو أحق باسترداد ماله، فنرضى بما يرضي به ربنا.

ثالثا–إن المؤمن لا يقول (إني لله) بل يقول (إنا لله)، وذلك لكيلا يتم الاعتراف بصورة فردية، بل يجب أن يكون كل إنسان على يقين وبصيرة أن كل شيء في الدنيا ملك لله تعالى، وأن علاقة المرء بالأشياء علاقة مؤقتة؛ فلا يحق لي وحدي، بل لأي إنسان في العالم، أن يعترض على فعل لله، أو أن يتأفف من لُقمة ذات مرارة ينالها منه تعالى.

جاء في (مثنوي) لمولانا الرومي أن سيدنا لقمان –وهو عند البعض من الأنبياء– كان صغيرا عندما استرقه بعض الناس بعد وفاة والديه، وباعه لتاجر. ولما رأى التاجر ذكاءه ونشاطه لم يعامله معاملة العبيد، بل أحبه. وذات مرة جاءته هدية من فاكهة الشمام من نوع جديد. فقطع قطعة منها وناولها لقمانَ. فتذوقها ووجدها مُرّة، ولكنه أتم أكلها متظاهرا بأنها حلوة. فناوله الرجل قطعة أخرى فأكلها

متظاهرا أنها جيدة وحلوة. وظن التاجر أن الشمام جيد، فأخذ لنفسه قطعة منه وتذوقها فوجدها مُرّة، فقال للقمان ساخطا: لماذا لا تخبرني حتى لا أطعمك إياها؟ فقال: لقد أكلت من يديك كثيرا من الأطعمة الحلوة من قبل، فلست قليل المروءة بحيث أرد ما أعطيتني شاكيا مرارته (مثنوي معنوي للرومي، دفتر ٢ص ٣٨).

هذا هو مفهوم (إنا لله). لقد متعنا الله تعالى بكثير وكثير من نعمه. فأي حرج لو استرد واحدة لحكمة أرادها؟ وأسعدنا بآلاف الأفراح، فأي ضير أو بأس لو حلت بنا مصيبة بإذنه؟ فكل ما عندنا عطية منه، ولو أنه استعاد شيئا فمن الحمق الشديد أن نجزع لذلك.

ورابعا —والمعنى الأفضل الأجدر بمقام المؤمن لقوله (إنا لله) هو أن كل النعم لله تعالى وهو صاحبها، فلو استرد منها شيئا فلا بأس؛ بل لو أراد استرداد كل ما عندنا فنحن مستعدون للتخلي عنه في سبيله سبحانه وتعالى. وهناك أمثلة كثيرة لهذه الروح في حياة الصحابة الكرام. كان سيدنا عثمان بن مظعون أحد كبار الصحابة المخلصين الذين آمنوا بالرسول في مكة..وكان المصطفى ﷺ يحبه حتى إنه عندما تُوفي ابنه إبراهيم قال له: اذهب إلى حيث أخوك عثمان بن مظعون. وكأن الرسول اعتبره أيضا ابنا له. كان عثمان بن مظعون ابنا لواحد من كبراء مكة، وعندما توفي أبوه أخذه أحد أصدقائه في ذمته وجواره وأعلن: هذا ابن أخي، فلا يتعرض له أحد.

وتمتع عثمان بهذا الأمان لبعض الأيام، ويغدو ويروح بحرية ولا يمد له أحد يدًا بسوء. ولكن ذات مرة يوم رأى فريقا من الكفار يعذِّبون بعض المسلمون من المستضعفين والعبيد تعذيبا شديدا، ويلقون بهم على الرمال الملتهبة.. فلم يستطع الصبر على هذا المشهد، وعاد إلى البيت، وقال لمن أجاره: يا عم، أني أرد عليك جوارك.. فإني لا أستطيع أن أنعم بالأمان ويتعرض المسلمون الآخرون لأشد الإيذاء. فأعلن الرجل سحب جواره. في تلك الأيام زار مكة لبيد —الشاعر المعروف، وأقيم له حفل تكريم، وحضره الرجل مع عثمان، وألقى الشعراء قصائدهم، وجاء دور لبيد فأنشد قصيدته ومطلعها "ألا كل شيء ما خلا الله

باطل". وما أن قال ذلك حتى صاح عثمان بن مظعون: حبّذا، ما شاء الله! ما أصدق ما قلت! فاغتاظ لبيد وقال: هل هُنْتُ حتى يصدقني هذا الغلام؟ واستثار أهلَ المجلس شاكيا جرأة الشاب عليه ووقاحته، فعنَّف القوم عثمان وحذروه من تكرار هذا الخطأ. فأتم لبيد البيت قائلا: "وكل نعيم لا محالة زائل ". فصاح عثمان مرة أخرى وقال: أمّا هذا فليس صحيحا، فإن نعيم الجنة لا يزول أبدا. فاستشاط لبيد غضبا، وقال للقوم: لقد أهَنتموني..ولن أنشد أمامكم. فقام أحدهم ولَكَم عثمان لكمة فقأت عينه، وهو جالس بجوار الرجل الذي كان يجيره من قبل. فلم يستطع هذا أن يتصدى للضارب، ولكنه عنَّف عثمان نفسه..كما تفعل الأم الفقيرة مع طفلها إذا ضربه طفل من أسرة كبيرة.. وتلومه قائلة: لماذا غادرت البيت، ولِمَ ذهبت إليه، فقال الرجل لعثمان بن مظعون: ألمْ أقل لك ألاّ ترُد جواري؟ أرأيت نتيجة ذلك؟ فقال عثمان: يا عم، إنك تأسف على عين واحدة، والله، إن عيني الأخرى مستعدة لأن تُفقأ هي الأخرى في سبيل الله! (أسد الغابة، ذكر عثمان بن مظعون).

فالمؤمن الحقيقي لا يخاف من التضحية، بل كلما أصيب بأذى، أو فقد شيئا ثمينا يقول: إن الفاني والباقي لله تعالى، وإذا كان هذا المتاع ملكا لله. فنحن أيضا ملكه.. فإذا استرد الله شيئا استأمن من عبده عليه، فأي مجال للشكوى من ذلك؟ إنني مستعد لبذل كل ما عندي من غال ورخيص.

خامسا–غير أن في الجملة الأولى (إنا لله) إعلان للاستغناء الإلهي، ولذلك فإن الله – ترحمًا بعباده–أضاف إليها جملة ثانية هي (وإنا إليه راجعون).. وهكذا أكمل العزاء للمصاب. لقد قال من قبل: إذا أنعمت عليكم، ثم استرددت نعمتي، فيجب ألا تعترضوا على ذلك. أيحق لأحد أن يعترض إذا أعطاه محسن شيئا، وانتفع به ثلاثين أو أربعين عاما، ثم استرده منه؟ كلا، بل إنه قد أحسن إليه إذ ترك

له متاعا ليستفيد منه. أما في الجملة الثانية فيقول الله تعالى: إذا ارتحل عنكم قريب لكم، فاعلموا أيها المؤمنون أن رحيله ليس رحيلا دائما. حتى ولو كان رحيلا دائما، و لم يكن هناك حياة بعد الموت تلتقون فيها بالراحلين، أفلا يحق لله تعالى أن

يسترد الأمانة التي استأمنكم عليها؟ ومع ذلك فإنه يعدكم بالمزيد في قوله تعالى (وإنا إليه راجعون).. أي لِمَ لا تفكرون هكذا: إذا سبقنا أحد بالرحيل إلى الله.. فنحن أيضا لاحقون به وراحلون إلى الله. كل ما في الأمر هو أنه أكمل مسيرته أولا، وسيكملها غيره بعده، أما الغاية المقصودة فهي واحدة. وما دامت الغاية واحدة والرحلة واحدة..فعَلامَ القلق والخوف؟ الآباء يرسلون أولادهم للدراسة في خارج البلاد، ولا ضمان لحياة أحد..هل يستطيع أحد القول بأنه سيعيش ليوم أو اثنين؟ لا يعرف الآباء ولا الأولاد إلى متى يمتد بهم العمر ويبقون أحياء. ومع ذلك فإن الأمهات والآباء يصبرون على فراق أولادهم للدراسة التي قد تطول إلى خمس أو عشر سنوات.. ولا يشتد بهم القلق أو الجزع، لأنهم مطمئنون أن أبناءهم سوف يعودون في يوم من الأيام. أو مثلا قد تنوي جماعةٌ السفر إلى مكان، ويبادر أحدهم بالسفر قبل غيره، فلا يخافون ولا يقلقون.. لأنهم سوف يلحقون به بعد بضعة أيام لأن الغاية واحدة. يقول الله تعالى: اعترفوا أولا أن الله قد أحسن إلينا، ونحن نشكره على إحساناته، ثم لتعلموا أنكم جميعا سوف تجتمعون بين يديه في يوم من الأيام، وستكونون عنده معا في نهاية المطاف.. وما دام الأمر كذلك فلماذا الشكوى من الله تعالى إذا فارقكم أحد؟ أي حمق أكبر من ذلك؟! إذا جزعتم وفزعتم لصار اتصالكم بأعزائكم في الآخرة أضعف.. لأن الذي بيده أن يجمعكم في الحياة الآخرة قادر أيضا على أن يفصل بينكم عندئذ. فالعزاء الحقيقي للمؤمن هو (إنا لله وإنا إليه راجعون).

أما الجسم فلا شك أنه إذا أصيب بجرح تألم الإنسان. إن الصحابة استُشهدوا في الحروب، واستُشهدوا برغبتهم ورضاهم، ولكن لا شك أنهم تألموا عند قطع أجسامهم.. فالجسم يتألم، ولكن الله يتفضل على عبدٍ لا تنفك روحه ساجدة على عتبته تعالى تقول: يا رب، إني لا أشكو. كل ما فعلتَ صحيح، وهو عين المصلحة، وفيه خير لي. وإنني وإن لم أفهم الحكمة في فعلك إلا إنني أعترف أنه لا يخلو من الحكمة.

سادسا–قوله تعالى (إنا إليه راجعون) يتضمن موضوعا آخر. فعندما يصاب الإنسان بألم فإن فطرته تقول له: لا بد أن بك نقصًا وفراغًا وبسببه تألمت. لو كنت قويًا ما أصابك ذلك، ولن يزيل عنك هذا الألم إلا ذو قوة. فالألم يدفع إلى الاستعانة بقوة خارجية. وعندما تدفع الفطرة الإنسانية صاحب الألم إلى الاستعانة بقوة من الخارج.. فإنه يفكر في أن الله تعالى هو الذي سوف يزيله عنه وينجيه منه، فيقول على الفور (إنا لله وإنا إليه راجعون). إننا مِلك لله تعالى وبه نستعين، ومنذا الذي يعينني غيره؟ لا شك أن قول (إنا إليه راجعون) يعني أننا راجعون إليه في آخر المطاف لا محالة، ولكنه يعني أيضا: إذا رجعنا فإننا نرجع إلى الله، وإذا تضرّعنا تضرّعا بين يديه.

لقد علّم الإسلام هذا الدرس بحسب مقتضى الفطرة الإنسانية تماما. فتألُّم الإنسان علامة على ضعفه، إذ لا يستطيع دفع الألم عن نفسه، وعلى الفور يفكر في أصدقائه وأهله ليستعين بهم، ولكن الله تعالى يقول: تذكروا أن الله تعالى هو أعز الأعزاء وأصدق الأصدقاء، فانحنوا أمامه واستعينوا به.

إن الذين عملوا بهذا الدرس لم يكونوا أبدًا من الخائبين أو الخاسرين، وإنما خاب وخسر من عمل بما يخالف الفطرة. فمثلا إذا دهم اللصوص بيتًا في الليل.. فإن العاقل يتجه إلى جيرانه وأصدقائه ليستنجد بهم، ولكن الأحمق يفر إلى الغابة أو إلى الخارج حيث لا يجد من يعينه. وكذلك في العالم الروحاني.. يتجه العاقل إلى الله ويستعين به، ولكن الأحمق يصيح عبثا: يا أماه، يا أماه؛ والظاهر أن أمه لن تعينه، وإنما كل ما يُفعل فإنما يفعله الله، ومع ذلك فإن الأحمق لا يتجه إليه.

فمن واجب الإنسان أنه كلما يصاب بمصيبة يقول على الفور (إنا لله وإنا إليه راجعون)..كما يقال في لغة البنجاب: "يجري الشيخ إلى المسجد "، ويقول المؤمن سوف أجرى أنا أيضا إلى ربي وأستعين به عند حلول المصيبة. وعندئذ يمنحه الله بركات منه ويزيل المصائب.

سابعا–وكذلك يتضمن قوله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون) موضوعا لطيفا آخر. إننا عباد الله ونرجع إليه، فلو صبرنا على الصدمة فإن الله تعالى يجازينا بأحسن

الجزاء، فما الحاجة إلى الجزع والفزع؟ إنما يجزع ويفزع من يظن ألا جزاء على الصبر وتحمل الصدمة، ولكن المؤمن يرى أنه عندما يرجع إلى ربه فلسوف يجزيه على ما تحمل من آلام ومصائب في صورة نِعَمٍ غير عادية. ومن حاز هذا المقام العظيم من الإيمان واليقين..لن يكون عديم الصبر.

لقد بيّن الله في هذه الآية تعريفا للصابرين في نظره. فالصابرون عند الإسلام هم الذين إذا حلت بهم المصيبة اتجه فكرهم فورًا إلى الله وقالوا: ما دام الله موجودًا فما الحاجة إلى اليأس والقنوط؟ عندما يكون الولد في حِجر أمة فإنه لا يخاف..كذلك هؤلاء يرون أنفسهم في حضن الله تعالى، فلا ييئسون عند حلول بلية أو نزول مصيبة.

ولو كان الصبر بمعنى الامتناع عن السيئات..كان المعنى أن هؤلاء إذا حلّت بهم مصيبة لا يميلون إلى ارتكاب المعاصي..كما حدث في زمن القحط والمجاعة.. عندما يشرع الناس في السرقة، بل إنهم مع هذه الشدائد يتجهون إلى الله فقط.

ولو كان الصبر بمعنى الثبات على الخير فتعني الآية أنه كلما يدفعهم محرك شيطاني عن عمل الخير والحسنة يتجهون على الفور إلى الله تعالى، ويتضرعون إليه متوسلين بصلتهم الروحية معه.

فهذه جملة صغيرة، ولكنها تتضمن معاني واسعة، ويدرك أهل الخبرة والتجربة جيدا أنه بترديد هذه العبارة تزول الآلام والخطوب التي يمكن إزالتها، ليس هذا فحسب، بل إن الله يثبّت الإنسان على تحمل المصائب التي لا يمكن إزالتها ويعوضها بطريق آخر. فمثلا من سنة الله تعالى أن الموتى لا يرجعون مطلقا إلى هذه الدنيا، فلو مات لشخص قريب فإنه لن يرجع إلى الدنيا حيّا.. ولكنه لو قال هذه العبارة بإخلاص فإنه لا بد أن يثاب على هذه الصدمة بطريق آخر. ولو أن الإنسان أصيب بخسارة كان يمكن تعويضها ومع ذلك لم يُعوض عنها.. فليدرك أن قَدَرَ الله الخاص حال دون هذا التعويض..وإلا فلا بد أن يُعوض.

أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدونَ (١٥٨)

شرح الكلمات:

صلوات –الصلاة هنا بمعنى المغفرة وحسن الثناء وليست بمعنى العبادة، لأن العبادة تكون لله وليست منه. وكذلك الصلاة هنا ليست بمعنى الرحمة، لأن كلمة الرحمة مذكورة بعد الصلاة.

التفسير: لقد بيّن الله هنا أن الذين يقولون (إنا لله وإنا إليه راجعون) بصدق القلب عند حلول الآفات السماوية والأرضية فإن الله يعطيهم نصيبا من مغفرته، أي أنه يعوضهم عما فقدوا، ويحوّل فشلهم إلى نجاح، وألمهم إلى الراحة. كذلك يتفضل عليهم بحسن الثناء عليهم.. أي يوطد سمعتهم الحسنة في العالم، ويُجري ذكرهم بالخير على ألسنة الناس. انظروا كيف أن المسلمين بذلوا تضحيات جساما لنشر الإسلام. لقد ضحوا بأرواحهم ونفوسهم وأولادهم دون تردد، ولم يكترثوا بأي مصيبة مهما كبرت، وكانت النتيجة أن أعداء الإسلام أيضا لا يجدون مفرّا اليوم من مدحهم والثناء عليهم. إنهم يعترضون على الإسلام ولا شك، ولكن عندما يتطرق الحديث إلى تضحيات الصحابة فلا بدّ لهم من التسليم بأن ما قدموه من تضحيات في سبيل نصرة دينهم لا يوجد له مثيل. يقول أحد المؤرخين الفرنسيين " إن أشد ما يثير حيرتي هو أننا نجد بعض الناس في ثياب رثّة بالية في المدينة داخل مسجد بسيط مغطى بجريد النخل يتساقط من سقفه المطر.. نجدهم يهمسون في آذان بعضهم البعض، وعندما نقترب منهم لنعرف ماذا يقولون.. نسمعهم يخططون كيف يُلحقون الهزيمة بقيصر وكسرى. ثم نرى أنهم فعلا بعد بضعة أعوام قد حققوا ما أرادوا. هؤلاء الضعفاء الدراويش الذين لا حيلة لهم.. تمكنوا من تمزيق حكومات قيصر وكسرى ". وهكذا اضطر أشد الأعداء إلى الثناء عليهم والاعتراف بأنهم حققوا إنجازات غير عادية.

لقد جمع الله بين الصلاة والرحمة لحكمة هي أن حكومات الدنيا عندما تكرّم أحدا فإن تكريمهم يتم بطريقتين: إما أن تخلع عليه لقبا، أو تكافئه بالمال والإنعام. ولكن

الألقاب التي تمنحها الحكومات لا قيمة لها في الحقيقة، بل إنها في بعض الأحيان تخلع ألقابا مثل "خان بهادور"- أي أشجع الشجعان –على شخص جبان يرتعد من الجرذان، ولكن إذا خلع الله لقبًا على أحد فلا بد أن يكون أهلا له وجديرا به حقا. وللأسف أن الناس يقعون في الخداع من الناحيتين: فإنهم يعتبرون من فاز بلقب شجاع من الحكومة شجاعا حقا، أما من خلع الله عليه لقب شجاع فلا يقيمون له وزنا ولا قيمة.. مع أن الله تعالى إذا منح أحدا لقبا فإنه يخلق فيه ما يؤهله لهذا اللقب. كان في زمن سيدنا المهدي –عليه السلام – شخص من الأحمديين في عقله شيء، جاء إلى قاديان وقال له: لقد أُلهمتُ أنني محمد وأنني موسى وأنني عيسى. فقال له سيدنا المهدي: وهل تنال شيئا مما أوتي موسى وعيسى ورسولنا الكريم؟ قال: لا. قال: فهذا إلهام شيطاني.. لأن الله لا يستهزئ بأحد ويخلع عليه ألقابا ثم لا يخلق فيه صفات تؤهله لها، بل عندما يخلع على أحد لقبًا فإنه يخلق فيه طاقاتٍ وقوى مناسبة له. فإنما ذلك الشيطان الذي لا يعطيك شيئًا، ولكن يدعوك موسى وعيسى ومحمدا-عليهم سلام الله.

فالصلاة تشير إلى النعم الروحانية، والرحمة تتعلق بالإنعامات المادية يراها من حولهم. يقول الله: إن من سنته أنه يمنح الصامدين في الابتلاءات بركات روحانية، وكذلك يمتعهم بمنافع مادية وأنواع الرقي بين مَن حولهم.

(وأولئك هم المهتدون)...لا تعنى الهداية هنا المشي في الصراط المستقيم. لأنهم فعلا يسيرون عليه، وإنما أن الله تعالى لا ينفكّ يأخذهم بعيدا في صراط الهداية، ويزيدهم كثيرا في إخلاصهم وإيمانهم.

والمعنى الثاني أنه في وقت المصائب والشدائد يدلهم على مَخرج منها.

والمعنى الثالث أن العبد عندما يقول بصدق (إنا لله وإنا إليه راجعون)ويتمسك بأهداب الصبر عند المصائب، فإن الله برؤية حال عبده يضطرب من عرشه للقائه، ويجازيه على حبه وإخلاصه.. فيأخذه على صراط هدايته ويوصله إلى غايته المقصودة. فكأنه نتيجةً للصبر والاستقامة يدخل في جماعة المنعم عليهم وتنفتح عليه أبواب الوصال الإلهي.

إذن، فإن الله تعالى يعِدُ هؤلاء الصابرين المخلصين ثلاثة جوائز: أولا –يدلهم على طريق الهداية، وثانيا–يهديهم إلى حلول تُخرجهم من المشاكل، وثالثا –وصالهم الدائم مع حبيبهم وربهم. والذي ينال هذه المنافع ...كيف يمكن أن يقلق على ما لحق به من خسارة مؤقتة.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٩)

شرح الكلمات:

الصّفا –جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم لا يُنبت، والصخرة الملساء لا يمكن حراثتها (الأقرب). والصفا اسم لجبل قرب الكعبة يتكون من صخور كبيرة.

المروة– مفرد مرْوٍ، والمروة حجارة بيض رقاق براقة تقدح منها النار. والمروة أيضا جبل بقرب بيت الله الحرام (الأقرب). وسمي بهذا الاسم لأن حجارته صغيرة.

فالصفا والمروة جبلان عند الكعبة المشرفة. وقد اتسعت الكعبة واتصلت بهما، وهناك باب ينفتح عليهما، وهناك سوق يسمى سوق الصفا، وصار جزءا من المدينة، وعنده يقومون بالسعي بين لصفا والمروة وقت الحج. وفي بادئ الأمر كان الجبلان منفصلين، ولكنهم ملئوا ما بينهما بالتراب والأحجار، فصارا كأنهما جبل واحد. وقد جعل الناس هناك علامتين يعرفون بهما بداية السعي ونهايته.

شعائر–جمع شعيرة، وهي العلامة، وطُرُق العبادة المقررة تسمى أيضا شعائر، ولكنها هنا بمعنى العبادة (الأقرب).

حجَّ – الحج هو القصد، ويعني في الشرع زيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك خاصة هناك.

اعتمر – اعتمر المكان: قصد له وزاره. ويقال: اتخذنا ناديا نعتمره أي مجلسا نجلس فيه مرة بعد أخرى ونتقابل هناك. فالاعتمار في الحقيقة هو زيارة مدينة أو مكان مقدس في نفسه أو بسبب التقاء الإخوان هناك.

ولكن العمرة في الشريعة الإسلامية تعني الطواف ببيت الله والسعي بين الصفا والمروة. ويمكن أداء هذه العبادة في أي وقت من السنة، ولكن للحج وقتًا خاصًا. وهناك فرق آخر بين العمرة والحج وهو أنهم يحرمون للعمرة من مكة ويحلقون، ولكن للحج مواقيت خاصة للإحرام من عندها.

جُناح– جَنَحَ: مال. ويطلق الجَناح على الأطراف والأرياش لميلانها. وكذلك يسمى الإثم جُناحا، لأن الإنسان يميل فيه إلى السيئة. وكلمة (كَناه) في الأردية ترجع إلى أصل عربي.

يطّوّف – طوّف حول الشيء وبه: طاف وأكثر المشي حوله (الأقرب). وطاف وطوّف بمعنى واحد، فقد جاء: طاف بالقوم وعليهم: استدار وجاء من نواحيهم (اللسان). وفي القرآن الكريم (يطوف عليهم وِلْدان مخلّدون) (الواقعة: ١٨). وليس المراد من الطواف هنا أنهم يطوفون حول الصفا والمروة وإنما المعنى أنهم يزورونهما مرارا.

تطوّع– تبرع بلا قصد أجرة لاحتمال مشقة. وتطوع كذا: تحمله طوعا (المفردات). والمطَّوِّع: الذي لا يأخذ أجرا على عمله.

شاكر- إذا وردت الكلمة في حق الله فمعناها الذي يُنـــزل نعمه ويجازي على العمل بأوامره. وعندما ترد في حق العبد فمعناها أن يشكر الله على نعمه (المفردات).

التفسير: قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله): الصفا والمروة جبلان يقوم الحجاج والمعتمرون بالسعي بينهما بعد الطواف بالكعبة المشرفة سبع مرات، أو أربع عشرة مرة. ولكن هذا الرأي الأخير ضعيف، والحق أن السعي الثابت عن الرسول ﷺ هو سبع مرات فقط (البخاري، كتاب المناسك)، يبدءون من الصفا وينتهون بالمروة، ثم يرجعون إلى الصفا. هذا السعي إحياء لذكرى السيدة هاجر أم إسماعيل.. ولذلك يُعتبر هذان الجبلان من آيات الله.

لقد أُمر سيدنا إبراهيم أن يأخذ زوجته هاجر مع ابنهما إسماعيل (عليهم السلام) ويتركهما في برية العرب حيث لا زرع فيها ولا ماء. فنفَّذ إبراهيم أمر الله وتركهما في واد غير ذي زرع ولا ماء عند الموضع الذي فيه الكعبة الآن. وترك معهما قِربة ماء وكيسا به تمر، وودعهما بعيون دامعة داعيا ربه. وعندما نفذ الماء اشتد العطش بإسماعيل، وبدأ يضطرب لشدة الظمأ، فلم تستطع الأم رؤية ذلك. فخرجت بحثا عن الماء.. تجري هنا وهناك. فصعدت جبل الصفا علَّها ترى أحدا تستقي منه، ولكنها لم تر أحدا. فأسرعت إلى الجهة الأخرى وصعدت جبل المروة. ونظرت فلم تر أحدا. فرجعت إلى الصفا، ثم إلى المروة مرة أخرى، وتكرر منها هذا السعي سبعة أشواط. وفي الجولة الأخيرة عند المروة سمعت نداء هاتف، فقالت: يا هذا، إن استطعتَ فساعِدْنا. وكان هذا صوت ملاكٍ مرسلٍ من لدن الله تعالى.. فقال: يا هاجر، اذهبي وانظري، فقد فجّر الله عينا تحت أقدام إسماعيل. فرجعت إلى ابنها فوجدت عين ماء بجوار إسماعيل الذي كان يتلوّى من العطش. تلك العين هي بئر زمزم قد فجّرها الله لإسماعيل كآية منه سبحانه وتعالى. وبفضل هذه العين ازدهر هذا المكان وصار مدينة عظيمة بإذن الله.

فبذكر الصفا والمروة وجّه الله الأنظار إلى أن الذين يصبرون لله تعالى ويثبتون ويواظبون على خدمة الدين لا يضيعهم الله أبدا، بل يريهم آياته السماوية كما فعل مع هاجر وإسماعيل، ويهب لهم حياة دائمة أبدية، وينعم عليهم بنعم غير عادية. فإذا صبرتم أنتم أيضا فإن الله سوف ينعم عليكم بهذه النعم ويجعلكم من شعائر الله.

قوله تعالى (فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما). كان بعض الناس يظنون أن الطواف بالصفا والمروة إثم، لذلك قال تعالى (لا جناح عليه).. ولا يعني ذلك أنكم مخيّرون بين الطواف أو عدمه، لأن السعي بينهما في الحج والعمرة ضروري. فالعبارة لا تعني أن الطواف بهما جائز، لأنه إذا قيل مثل هذا الكلام في أمر يظن الناس بكونه حراما فإنما يكون المراد نفي ظنهم هذا. ومذهب السيدة عائشة رضي الله عنها أن الطواف ضروري، فقد ورد أن ابن أختها عروة بن الزبير سألها عن هذه الآية وقال (فوالله، ما على أحَد جناح ألاّ يطّوّف بالصفا والمروة! قالت: بئسما قلت يا ابن أختي! إن هذه لو كانت كما أولتها عليه لكانت: لا جناح عليه أن لا يطّوّف بهما (البخاري، كتاب الحج).

تبين هذه الرواية أن عروة بن الزبير كان يرى أن الطواف بهما ليس ضروريا، كذلك ابن عباس وأنس وعطاء ومجاهد. أما الإمام أحمد بن حنبل فمذهبه أن الطواف بهما ليس ضروريا، ولكن لا يليق بأحد أن يتركه عمدا. وإذا تركه ناسيا فلا جناح عليه، ولكن الأنسب أن يطوف بهما. أما الإمامان الشافعي ومالك فيريان أن الطواف بالصفا والمروة من أركان الحج. أما الإمامان الثوري وأبو حنيفة فيريان أن مَن ترك الطواف بهما عمدا في الحج فعليه تقديم الهدي والأضحية (جامع البيان تحت هذه الآية).

وقد ذكرت السيدة عائشة السبب وراء ذلك فقالت: (.. أُنزلت في الأنصار. كانوا قبل أن يُسلموا يُهِلّون لـــ"مناة" الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشَلَّل، فكان من أَهَلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك،

قالوا يا رسول الله ﷺ إنا كنا نتحرج أن نطوف الصفا والمروة. فأنزل الله تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله.. الآية) (البخاري، كتاب الحج).

وما دامت هناك جماعة ترى أن السعي بين الصفا والمروة ليس جائزا، فإذا سأل أحد: هل السعي بينهما إثم أم لا؟ لكان الجواب: كلا. لا إثم في السعي بينهما.

والسؤال عما إذا كان هذا السعي جائزا أم واجبا.. فيجب أن نعرف أن القرآن قد اكتفى بتخطئة من يقولون بأن السعي إثم، وإلا فإن الرسول ﷺ قد أثبت بسُنته أن هذا السعي ضروري، فقوله تعالى (لا جُناح عليه أن يطوف بهما) لا يعني أن السعي بينهما أمر اختياري.. وللمرء أن يسعى أو لا يسعى! الحق أن هذا أسلوب للنصيحة، عندما لا يهتم الإنسان بأمر ضروري فيقال له: هذا ليس إثما. والمراد: ربما لم تهتم بهذا العمل ظنّا منك أنه إثم، مع أنه ضروري.

وهذا المعنى يوضّحه قول الله تعالى (وإنِ امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا، والصلح خير) (النساء: ١٢٩). فقوله تعالى (لا جناح عليهما) يعني أنه إذا فكر الزوجان لوجدا أن الصلح لا إثم فيه. فإذا كان التقصير من المرأة مما يغضب الزوج فعليها أن تتجنب هذا التقصير، وإذا كان الخطأ من الرجل فعليه أن يصلح من أمره.

فقوله تعالى (فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما) كمعنى قوله تعالى (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا). ولقد نفى الله هنا رأي أولئك الذين يرون السعي بينهما غير جائز أو إثما، وقال: إن السعي بين الصفا والمروة لا إثم فيه. ربما لا تهتمون به ظنا منكم أنه إثم. كلا، إنما هو ضروري.

وفي قوله تعالى (ومن تَطَوَّع خيرا) يشير إلى أن بعض الناس يشتركون في أعمال الخير نظير جزاء وإنعام.. وهذا النوع من المساومة مع الله تعالى ليس أمرا محببا، فالرغبة في المقابل على العبادة رغبة تافهة، وإنما المقام الحقيقي للإنسان هو في أن

ينهمك في عبادة الله ليل نهار ويحني رأسه أمامه دائما لكسب رضوانه فقط، وشكرا على نعمه العديدة التي لا حصر لها.

ولنتذكر أن قوله تعالى (ومن تطوع خيرا) لا ينفي وجوب الطواف، وإنما المراد أنكم كلما قمتم بالعمرة والحج ازددتم ثوابا. وكأنه حضّ على أن يؤدي المرء الحج والعمرة، ويقوم بزيارة هذه الأماكن المقدسة مرة بعد أخرى.

وقوله تعالى (إن الله شاكر عليم) يعني: لا تساوموا الله تعالى، بل ينبغي أن تتوكلوا عليه توكلا صادقا، فلن يضيع أعمالكم الحسنة، وسوف يجازيكم عليها خير الجزاء، لأنه يُقدّر الأعمال حق قدرها، ويعلمها تماما. ولقد أضاف صفة العلم إلى الشكر، لأن الجزاء الذي يناله الإنسان على أنواع: فبعضه يدمر الإنسان، وبعضه نافع مبارك. فمثلا لو منحتَ الأعمى منظارا، أو المجذوب ملابس فخمة.. فلن ينتفع هذا ولا ذاك، لذلك يقول الله تعالى إنه عليم بأحوالكم، وسوف يُنعم عليكم بحسبها، ويجازيكم على أعمالكم جزاء ينفعكم على الدوام.

الترتيب والربط:

قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) يؤكد أيضا صحة ما ذهبتُ إليه في تفسير قوله تعالى (ومن حيث خرجتَ فوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام)، لأنه لا ربط بين تحويل القبلة وبين ذكر أن الصفا والمروة من شعائر الله.. لأن المسلمين وقتئذ ما كان بوسعهم الذهاب إلى الصفا والمروة حتى يُذكرا ذِكرا خاصا. الحقيقة أن هذه الآية (ومن حيث خرجت..) تأمر المؤمنين بفتح مكة.. فهذا يفتح لهم السبيل إلى الحج، ويمكّنهم من السعي بين الصفا والمروة.